اقرأ

محمد فهمي عبد اللطيف

أبو زيد الهلالي

دار المعارف للطباعة والنشر



أبو زيد الهلالي

محمد فهمي عبد اللطيف

أبو زيد الهلالي

اقرأ ٤٧

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٧ — أكتوبر سنة ١٩٤٦



هذا الكتاب

لا يزال الأدب بجميع فنونه وألوانه يحلق فوق رؤوس الجماهير ويتعالى على البيئات الشعبية ، ولا يزال أهل الأدب والفن يترفعون على مستوى العامة بما يصطنعون من الامتيازات والخصائص فى تفكيرهم وتعبيرهم ، وفيما يتناولون من شئون الحياة ومظاهر الكون ورغبات الناس وتصاريف الدنيا .

والحجة الوحيدة لأهل الأدب على هذا الترفع هى أن الفن سمو ورفعة، فليس من غايته أن ينحدر إلى البيئات الشعبية وأن يجاريها فى مباذلها، وإنما غايته أن يسمو بهذه البيئات وأن يرتفع بها إلى أعلى ، فيهذب عواطفهم ويصقل مشاعرهم ويجعلهم يحسون بإنسانيتهم على وضع أنبل وأكرم ، وهذه حجة لها وجاهتها وقوتها ولكنى لا أراها تدعو إلى كل هذه المبالغة فى الكبرياء والتحفظ، فأنا مع (رومان رولان) فى دعوته « إلى إدخال الفن فى البيئات الشعبية وتجريده من امتيازاته وأمجاده وأوضاعه الرسمية التى

اصطنعها أهل الفن اصطناعا وأقاموها أسواراً شاهقة تفصل بينهم وبين عامة الناس وتميزهم فى غدوهم ورواحهم كأنهم طبقة الكهان» ، ولكنى لا أستطيع أن أقول أبداً إن الفن ـ وأعنى الأدب خاصة ـ يجب أن يصير شعبياً عامياً يتجاوب مع عواطف الجماهير ورغباتهم بأسلوبه و بفكرته و بما يهدف إليه من الغايات .

ولقد عاش الأدب العربى آماداً طويلة وهو فى جمهرته ربيب القصور وساحات الملوك ، فما كان يمشى بين الناس إلا ممهوراً باسم الخلفاء والولاة والحكام كأنه الدراهم والدنانير ، ولكن فى الاونة الأخيرة رأينا الأدباء يتجهون إلى طبقات الشعب و ينزلون إلى معترك الجماهير و يتلمسون فى هذه المجالى مادة لإنتاجهم وتصويرهم ، وهو اتجاه حميد من غير شك ، و إنها لخطوة طيبة فى تقريب المسافة بين من يسمونهم الخاصة و بين من يسمونهم العامة ؛ ولكننا لا نستطيع على أى حال أن نسمى هذا اللون من الأدب أدبا شعبياً يموج بعواطف البيئات الشعبية و يتجاوب مع رغباتهم وميولهم و يؤثر فى تكوين شخصياتهم وتلوين نفسياتهم ، بل هو لون من الأدب لا يتصل بتلك البيئات إلا فى مادته ، ومع ذلك فقد يكون فيه كثير من التلفيق المصطنع والكذب المخترع والصورة

التى لا تتأتى ولا تتحصل إلا فى خيال مبتدعها .

على أن هذه البيئات الشعبية لم تكن لتنتظر حتى يتنزل إليها ذلك الأدب الرفيع من عليائه ، فتجد فيه نفسها وتنهل منه ما يروى عواطفها ويربى شخصيتها ، ولكنها وجدت نفسها فى أدبها الخاص وفيما تفيض به عواطفها من الأحاديث والأسمار والقصص والأشعار والحكم والأمثال والأغانى والأناشيد والاعتقادات والنزعات ، وما يتصل بهذا كله من ألوان اللذة العقلية وضروب التسلية الفكرية وميول العقيدة الدينية . ذلك لأن الجماعات مهما كان طابعها من الانحطاط والجمود لا يمكن أن تعيش مطوية على نفسها مكبوتة العواطف والنزعات ، وإنما هى تنطلق على سجيتها فى التعبير عن فيض إحساساتها وتستهدى الفطرة فى التصوير الفنى لشتى رغباتها ولهفاتها وما يضطرم بين جوانحها من الانفعالات الوجدانية الساذجة أو العميقة .

وللشعب عندنا من هذه الألوان تراث أدبى حافل ، وهذا التراث الشعبى هو أقوى مؤثر فى حياة البيئات الشعبية وأكبر محرك لوجدانات الجموع والجماهير ، وبهذا يمكن أن نقول إن هذا التراث هو الدعامة الأولى فى بناء شخصية الشعب وتكييف

عواطفه وتلوين اتجاهاته ، فلا يستطيع أحد أن يقول إن الجموع الشعبية قد تأثرت شخصيتها أو تأثر تفكيرها بالمعلقات أو المطولات أو دواوين الشعراء من عهد امرىء القيس إلى اليوم أو بما أنتجه وينتجه الكتاب والباحثون وأهل الفكر والرأى . وكيف؟ وهى تعيش بأميتها وبمستواها منقطعة عن هذا كله بعيدة منه لا تحسه فى كثير ولا قليل ، ولكن أحداً لا يستطيع أن ينكر أن بيئاتنا الشعبية فى القرى وفى المدن تأثرت ولا تزال تقع تحت تأثير قصص أبى زيد الهلالى وألف ليلة وليلة وعنترة والظاهر بيبرس وسيف ابن ذى يزن ونوادر جحا وأمثال ابن عروس وأشعاره ، ثم ما يروى من كرامات السيد البدوى والسيد ابراهيم الدسوقى وشطحات المتصوفة والدراويش . فمن هذا كله تغذت عقلية الشعب وعلى هذا كله تربت شخصيته وتأثرت به إلى حد كبير .

فالمؤرخون والباحثون حين يتناولون الأدب الرفيع على أنه صورة كاملة لحياة الأمة ويأخذون فى دراساتهم بهذه القضية على إطلاقها وعمومها إنما يسرفون على الحقيقة ويحملون القضية ما لا تحتمل . لأن ذلك الأدب مهما بالغنا فى تقدير قيمته وأثره فلن نجده إلا صورة لتفكير طبقة خاصة فى الأمة وهى طبقة لها

امتيازاتها وتقاليدها ، فاذا أرادوا حقاً أن يروا الصورة الكاملة
وأن يرسلوا القضية على عمومها و إطلاقها ، فليضموا إلى تقديرهم
التراث الشعبي ، بل إنه لأصدق دلالة على توضيح شخصية أهله
وتمثيل نفسيتهم ، لأنه وحى الفطرة وإلهام الغريزة وفيه تتجلى
العواطف واضحة صريحة لايحجبها تزوير ولايخفيها ذلك الاصطناع
والتأنق الذى يكون فى أدب الخاصة .

ولقد اهتم الباحثون فى كثير من الأمم بدراسة التراث الشعبي
على اختلاف ألوانه واتجاهاته . اهتموا بدراسته على أنه حلقة
من حلقات التطور التاريخى والتفكير الأدبى والفنى ، وعلى أنه
صورة صادقة للأدب القومى تتجلى فيها الآلام والآمال التى
تسيطر على نفوس العناصر الشعبية، ثم على أنه ناحية من التفكير
فيها جمال وحياة وفيها متاع ولذة ، ومن العجيب أن الباحثين
والمفكرين من المستشرقين قد عنوا بتراثنا الشعبي فى بعض
نواحيه وكتبوا فى ذلك بعض الأبحاث فى حدود ما يملكون من
الأداة لذلك ومايصل إليه فهمهم وإدراكهم لمظاهر بيئة هم طارئون
عليها وعابرون بها ، ولكننا مع هذا كله لا زلنا ننظر إلى ذلك
التراث نظرة شذراء . ننظر إليه على أنه شيء تافه لا يستحق العناية

والاهتمام ، حتى النواحى التاريخية الصحيحة من هذا التراث لم يعن أحد بتحقيقها ، ولا يزال شبابنا المثقف يجهلها كل الجهل ، فنجدهم لا يعتقدون فى أبى زيد وجحا وغيرهما من الشخصيات الشعبية ألا إنهم حديث خرافة وكلام فارغ لا أصل له . . .

وأى شىء فى هذا ؟

إن أدبنا المصرى نفسه لا يزال مجهولا مطموراً فى مخطوطاته ، ولا تزال آثاره مبعثرة فى مكاتب العالم ، ولا تزال جامعاتنا ومدارسنا لا تعرف منه إلا شذرات مبتورة وقطعاً ممزقة ، ولا يزال شبابنا يجد ويكد فى ارتياد مجاهل الأدب الجاهلى ويبدى ويعيد فى كلام أصبحت النفوس تضيق به ، ولكنهم لا يكلفون أنفسهم شيئاً من المشقة فى كشف مجاهل الأدب المصرى الذى هو فيض عواطفهم وصورة من حياتهم وطبيعتهم و بيئتهم .

***

ومنذ أعوام عنيت بدراسة الأدب المصرى على صورة واسعة شاملة ، فعكفت على مخطوطاته فى دار الكتب المصرية أتقصاها وأتفحصها ، وكان أن وقفت فى بحثى على هذه الناحية الشعبية فاستوقفتنى وقفة طويلة وشغفنى أن أستوفى بالبحث عناصر هذه

الناحية التى أثرت فى شخصية هذا الشعب كما قلت إلى حد كبير ، ثم رأيت أن أرودها بالدراسة وهى الناحية المجهولة المطمورة التى انصرفت عنها أنظار الباحثين على ما لها من الخطورة البالغة والقيمة العظيمة ، ولقد استوفت هذه الناحية دراسة وبحثاً وتنقيباً ولكن مشاغل الحياة الصحفية جرفتنى فى تيارها ولم تترك لى أية فرصة للكتابة فى هذه الناحية ولم تمكننى من أن أتقدم بنتيجة بحثى ودراستى للقارئ ، ثم كان أن كنت أحرر فى مجلة أدبية كبيرة وفى يوم تلقت المجلة من أحد القراء سؤالا عن حقيقة أبى زيد الهلالى والقصص الذى يحكى عنه ، فهل هو حقيقة أم خرافة وتلفيق خيال ، وجلست أجيب عن هذا السؤال فامتد بى الكلام حتى كان هذا البحث الذى أقدمه اليوم إلى القراء والذى يتضمنه هذا الكتاب ، وإنى لأذكر أن سؤال ذلك السائل ظل ينتظر منى الجواب إلى اليوم .

فى هذا البحث ، بذلت جهد الطاقة وقدر الإمكان فى تقصى الثابت فى التاريخ والموضوع فى القصص والشائع عند الناس ، وعنيت أن أنهج فيه نهجاً حديثاً يقوم على التمحيص والتحقيق والاستنتاج والمقارنة والتحليل والتعليل ، وأردت أن أقدم من

هذا كله صورة للقارىء فيها إشباع للعقل وإمتاع للقلب ومؤانسة للروح ، وأن أكشف عن ناحية لها بتاريخنا صلة وثيقة وفى ثقافة الشعب وعقليته أثر كبير . وقد تناولت فى هذا البحث تاريخ بنى هلال وسليم وقصصهم وسير أبطالهم ولكنى عنونته باسم « أبو زيد الهلالى » لأنه أظهر بطل فى القصة ولأن القصة قد عرفت وذاعت فى البيئات الشعبية باسم هذا البطل الكبير ، وإنى لأقدم المعذرة للقراء إذا ما رأوا إجمالا فى بعض نواحى البحث فقد اضطرنى إلى ذلك ضيق المقام .

محمد فهمى عبد اللطيف

الفصل الأول

بنو هلال وسليم :

هؤلاء قوم ذكرهم فى القصص أكبر من ذكرهم فى التاريخ ، وحديثهم فى السمر أمتع وأروع من حديثهم الصحيح . العامة يجلون قدرهم ويرتفعون بمقدارهم، وكأنى بالخاصة قدترفعوا عنهم فلم يحفلوا بخبرهم ولم يهتموا بتاريخهم . حتى القدماء من المؤرخين قد مروا بهم مر الكرام ، ونظروا إليهم فى غير احترام ؛ ولولا العلامة ابن خلدون الذى تتبع أنسابهم وتابع سيرهم وأكبر من شأنهم لما وقفنا لهم على خبر يذكر ، ولا وقفنا لهم على تاريخ يؤثر .

هذا فى القديم ، وهذا فى الحديث أيضاً . فأنك لا تجد فى العربية باحثاً قد اهتم بتاريخ هؤلاء القوم أو عنى بدراسة القصص الذى يحكى عنهم والأسمار التى تتصل بهم، على حين نجد المستشرقين كعادتهم قد تقحموه بالدرس وتناولوه بالبحث . حتى كتبوا فى ذلك الكتب الوافية والفصول الضافية . وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن (باسيه) و (هارتمان) كانا أول من

بحث هذا القصص ـــ أى قصص بنى هلال ـــ بحثاً قوامه العلم والفهم ، و إن (بل) كتب بعد ذلك كتاباً قيما فى هذا الموضوع عنوانه (الجازية) شقيقة سلطانهم الحسن بن سرحان . وللباحثين الفرنسيين عناية ظاهرة بتاريخ هؤلاء القوم وتاريخ البربر الذين كانوا يقطنون شمال أفريقية ، وهى عناية ترجع إلى صلة فرنسا الاستعمارية بتلك البلاد ، وناحية من البحث التاريخى ، دفعت إليها وجهة سياسية . ورغبة فى المعرفة للسيادة والحكم

أوليتهم فى التاريخ :

وخبر بنى هلال وسليم فى التاريخ خبر قديم ونسبهم فى العرب نسب صحيح ، فهم من بطون مضر، و بطون مضر كثيرة متعددة كانت كلها تعيش فى الجاهلية على البداوة والخشونة وتطلب النجعة حيث مساقط الماء ومنابت العشب ، فلما جاء الإسلام دخل كثيرون منهم حظيرته وحملوا رايته وغلبوا الأمم على أمورهم وملكوا الأقطار والأمصار وتمت لهم السيادة أيام بنى أمية فى الشام و بنى العباس فى العراق ، ثم بنى أمية مرة أخرى فى الأندلس ، فانقسموا فى الدنيا وافترقوا على الثغور البعيدة كما يقول

ابن خلدون ونبتت أجيالهم فى ماء النعيم ،واستطابوا خفض العيش وطال نومهم فى ظل الترف والسلم ونسوا عهد البادية، وانفلتت من أيديهم الملكة التى نالوا بها الملك، واتخذوا البطانة من موالى الأعجام وصنائع الدولة فاستوت الحامية بالرعية والأصيل بالدخيل، واختلط عرب الفتح بالهمج ،ولم يراجعوا أحوال البداوة لبعدها ، ولا تذكروا عهد الأنساب لدروسها ، فدثروا وتلاشوا شأن من قبلهم ومن بعدهم ؛ سنة الله التى خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

قبائلهم فى نجد :

وقد كانت ثمة بطون من مضر بقوا على حالهم الأولى ولزموا نهجهم القديم، فظلوا يضربون فى الوديان و يتنقلون بين الشعاب و يستظلون بالحلل والوبر ، وقد كانت هلال وسليم من هذه البطون ، وكانت محلاتهم من بعد الحجاز بنجد . فبنو سليم مما يلى المدينة و بنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف . و يقول الألوسى فى تاريخ نجد : « إن فى قرى الوادى بنجد بقعة تسمى بالهلالية وإن ناحية القصيم كانت تحت إمارة رجل من آل سليم » . فلعل ذلك مما بقى من آثار القوم هناك . ونظراً

لضيق الرزق فى تلك البلاد وقلة الكفاية فى الأقوات، كان بنو هلال وسليم يطوفون رحلة الشتاء والصيف بأطراف العراق ، فيغيرون على الضواحى ويفسدون السابلة ويقطعون على الرفاق، وكثيراً ما كان بنو سليم ينقضون على الحاج أيام الموسم بمكة وأيام الزيارة بالمدينة حتى أفزعوا دار الخلافة وأضجروا القائمين بالأمر وغضوا من سمعة الدولة ، وكثيراً ما كتب العباسيون الكتائب وحشدوا الجنود للايقاع بهم وصون الحاج من عيثهم وعبثهم ، ولكن كل ذلك لم يفل فى عزمهم ، ولم يحد من طغيانهم ، بل زاد خطرهم واستفحل شرهم . إذ ظهر القرامطة بدعوتهم الهدامة وصاروا يغيرون على أطراف مصر والشام والحجاز حتى دخلوا مكة ونهبوا الكعبة واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه ووضعوا السيف فى الحجاج والزوار وفرضوا عليهم الفروض وأخذوا منهم الإتاوات ، ويقول ابن خلدون : إن بنى سليم والكثير من ربيعة ابن عامر قد تحيزوا إلى هؤلاء القرامطة عند ظهورهم وصاروا جنداً لهم بالبحرين وعمان ، فكانوا يعينونهم فى حروبهم ، ويظاهرونهم فى إفسادهم . ثم يقول ابن خلدون : وكان القرامطة قد تغلبوا على الشام، والشام يومئذ تابعة لخلافة الفاطميين

فى مصر فانتزعها العزيز منهم وردهم إلى قرارهم بالبحرين ، ونقل أشياعهم من العرب من بنى هلال وسليم فأنزلهم الصعيد فى العدوة الشرقية تجاه البحر الأحمر ، فأقاموا هناك وكانت لهم أضرار بالبلاد .

قصة الجازية والشريف :

ثم يقول ابن خلدون : ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم إلى افريقية طرق فى الخبر ، فهم يزعمون أن الشريف ابن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبى الفتوح ، وأنه أصهر إلى الحسن ابن سرحان فى أخته الجازية فأنكحه إياها وولدت منه ولداً اسمه محمد ، وأنه قد حدث بينهم وبين هذا الشريف مناضبة وفتنة فأجمعوا أمرهم على الرحلة عن نجد إلى أفريقية واحتالوا عليه فى استرجاع هذه الجازية ، فطلبت زوجها فى زيارة أهلها فأزارها إياهم وخرج بها إلى حللهم ، فارتحلوا بها وبه وكتموا رحلتها عنه وموهوا عليه بأنهم سيباكرون به إلى الصيد والقنص ثم يروحون به إلى بيوتهم ، فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع مكة وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم فرجع ، إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دخيل

وأنها بعد ذلك كلفت به كلفه بها إلى أن ماتت من حبه ، ويتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يغض من خبر قيس مع ليلى وكثير مع عزة، ويروون كثيراً من أشعارها محكمة المبانى متقنة الأطراف وفيها المطبوع والمصنوع والمنحول ، وهم يتفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفاً عن سلف وجيلا بعد جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب فى أمرها أن يرمى عندهم بالجنون والخلل لتواترها بينهم ، وهذا الشريف الذى يشيرون إليه إنما هو من الهواشم وهو شكر بن أبى الفتوح الحسن بن جعفر بن هاشم ، وأبو الفتوح هذا هو الذى خطب لنفسه بمكة أيام الحاكم إذ بعث إليه بنو الجراح من أمراء طيئ بالشام فوصل إلى أحيائهم وبايع له كافة العرب ، ثم غلبتهم عساكر الحاكم فرجع إلى مكة وأظهر الطاعة للفاطميين ، ومات سنة ثلاثين وأربعمائة ، فتولى من بعده ابنه محمد الذى يزعم الهلاليون أنه من الجازية[(١)]

ولقد ألمع ابن خلدون إلى هذه القصة من قبل فقال وهو يتحدث عن دولة الهواشم بمكة : ثم توفى الأمير أبو الفتوح

---

(١) ج ٦ ص ١٧ وما بعدها .

سنة ثلاثين وأربعمائة، وولى بعده إمارة مكة ابنه شكر، وشكر هذا هو الذى يزعم بنو هلال أنه تزوج الجازية بنت سرحان من أمراء الأثبج منهم، وهو خبر مشهور بينهم فى أقاصيصهم وحكاياتهم التى يتناقلونها و يطرزونها بأشعار من جنس لغتهم ، وقد اهتم ابن خلدون فأورد فى المقدمة جملة من تلك الأشعار التى قالوها فيما كان بينهم و بين الشريف ، والتى قالها الشريف أو قيلت على لسانه فى البكاء على الجازية والجزع لفراقها .

مناقشة ابن خلدون :

والظاهر أن المؤرخ الكبير إنما ذكر هذه القصة على أنها مما يحكى و يقال لا على أنها حقيقة تاريخية ، أو هو على الأقل لم يعن بتمحيصها والبحث فى صدق وقائعها ؛ والواقع أن هذه القصة ليست من الغرابة والإحالة بحيث يردها العقل ، ولكن المؤرخين لم يأتوا بما يدعمها فى النقل، فابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أوردها وأثبتها على علتها ، وقد كتب الشيخ حسن العطار أمام هذه القصة بهامش النسخة البولاقية ما نصه : قصة أبى زيد التى تحكى فى قهاوى مصر أصلها هذه الواقعة كما أشار لذلك

المؤلف ، وكثيراً ما كنت أتطلب لها أصلا فى التاريخ فلم أجده إلا فى هذا المحل .

ولقد كنا فى حل من أن نقبل هذه القصة كما رواها ابن خلدون لأنها كما قلنا لا يحيلها العقل ، ولأنها تتصل بأشخاص لهم خبر صحيح . فشكر والجازية والحسن بن سرحان و إمارة شكر على مكة وخروج العرب من نجد . كل هذه العناصر ثابتة صحيحة ، ولكن ابن خلدون وهو المؤرخ الوحيد لهذه القصة قد رواها بلغة تنم عن ضعفها وتدل على عدم ثقته بها واطمئنانه إليها ، فتجده يقول : ويزعمون ، ويحكون فى قصصهم . ثم إن ابن خلدون قد ذكر من قبل أن خروج العرب من نجد إنما كان على عهد العزيز ، وشكر الذى تشير اليه قصتهم إنما كان على عهد المستنصر ، أى بعد أن مضت خلافة العزيز والحاكم والظاهر ، وأظهر من هذا فى التناقض أن ينص ابن خلدون على أن العزيز هو الذى استقدم بنى هلال و بنى سليم إلى مصر ليبعدهم عن مشايعة القرامطة فى إغاراتهم على مصر ، ثم يقول فى القصة إنهم أجمعوا الرحلة عن نجد لمغاضبة وفتنة بينهم وبين شكر ، ثم إن ابن خلدون يذكر أن هؤلاء العرب قد فارقوا بلادهم إلى مصر ثم انتقلوا إلى

إفريقية ، ولكن القصة تدل على أنهم فارقوها إلى إفريقية مباشرة ولم تشر إلى نزولهم مصر. وأخيراً تقول القصة إن شكراً قد أعقب ولداً اسمه أحمد من الجازية وأنه قد أخذ الإمارة من بعده ، ولكن ابن حزم يقول إن شكراً هذا لم يولد له ، وأن أمر مكة صار من بعده إلى عبد كان له ، بل إن ابن خلدون نفسه يذكر فى الكلام على دولة الهواشم أن الذى تولى من بعد شكر سنة أربع وخمسين وأربعمائة إنما هو محمد بن جعفر وقد خطب المستنصر العبيدى . فكل هذا الذى ذكرناه يحملنا على أن نقف من القصة موقف المستريب ، وأن ننظر إليها نظرة المتبصر .

على أننا بعد هذا كله نرى أن هذه القصة قد تكون صحيحة فى أصلها وإن كان قد وقع بعض الخلط فى تفصيلها ، خاصة وأن القوم كانوا يحفظونها بالرواية ويتناقلونها بالحكاية حتى طال عليها الأمد وامتد بها العهد ، وذلك مظنة الزيادة والنقص والتحريف والتخريف. وليس ما يمنع أن يكون العرب لما أغراهم العزيز بذهبه قد اصطنعوا المغاضبة مع الذين كانوا تحت إمرته من الهواشم ، ولم يسمح لهم شرفهم بترك ابنتهم الجازية فى بلاد سيرحلون عنها ، فلما جاء القوم من بعد وتناولوا القصة بالحكاية بعد أن نزلوا مصر

ثم رحلوا عنها إلى إفريقية ذكروا ولده الشريف بأسم شكر الذى كان موجوداً لذلك العهد وعلى هذا كثر ذكره فى قصصهم وأشعارهم التى سنتناولها بالبحث فيما بعد .

نزولهم مصر وخروجهم منها :

نزل بنو هلال و بنو سليم أرض مصر فى كثير من بطونهم وأتباعهم — وقد اتخذوا منازلهم على ما قدر لهم العزيز الفاطمى بالصعيد فى حدود العدوة الشرقية للنيل، والظاهر أنهم قد انتشروا بعد ذلك فى كثير من نواحى الصعيد حتى قال الحمدانى : وكان لهم بلاد صعيد مصر كلها[1] ،ويقول المقريزى فى (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) : وكان بنو هلال أهل بلاد الصعيد إلى عيذاب، و بأخميم منهم بنو قرة و بساقية قلته بنو عمرو. وفى بنى هلال عدة بطون:منهم بنو رفاعة و بنو صجير و بنو عزيز، و بأصفون وأسنا بنو عقبة و بنو جميلة .

ولقد كان شأن هؤلاء العرب فى مصر كما كان شأنهم فى نجد ، يعيشون على البداوة والخشونة و يجرون على طبيعتهم

(١) صبح الاعشى جـ١ ص ٣٤٥

فى السلب والنهب والإغارة ، وجميع المؤرخين لا يذكرونهم فى مصر إلا بهـذا المعنى ولا يقفون بهم إلا عند هـذا النعت ، حتى أن ابن خلدون الذى كتب تاريخهم وأشاد بذكرهم يقول: «وقد عم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شررهم». بل لقد خرج بعضهم على بعض ونشب الخصام بين رياح وزغبة فيهم، فتقارعوا على المحلات والمنازل، وكانوا كالنار تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله ؛ وكأن العزيز إذ نقلهم إلى مصر اتقاء لشرهم إنما جلب على الدولة شراً أكبر وخطراً أعظم ، وما ارتاحت البلاد والدولة منهم حتى خرجوا فى شأنهم إلى إفريقيا .

السبب فى خروجهم :

وسبب خروجهم هذا أن المعز بن باديس ملك صنهاجة والقيروان من قبل الخليفة الفاطمى كان قد انحرف عن مذهب الشيعة إلى أهل السنة ، وكبا به فرسه على حد تعبير ابن خلدون فدعا مستغيثا بالشيخين أبى بكر وعمر وسمعته العامة فثاروا بالشيعة وأمعنوا فيهم بالقتل والسلب حتى قتلوا دعاتهم وهدموا بيوتهم ، وجاء الخبر بذلك إلى الخليفة الفاطمى فغضب وتغير ، وكتب وزيره

أبو القاسم الجرجانى إلى المعز يحذره المغبة ويتهدده بالقتال ، فرد عليه المعز بالتعريض وأغلظ فى الجواب ، وزاد فى عناده فقطع الدعاء للفاطميين سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر حتى لقد أحرق بنوده ومحا اسمه من الطرر والسكة ، وغير من الآذان حى على خير العمل، ودعا للقائم بن القادر من خلفاء بغداد وحظى منه بالتقليد والخلع، وقرئ كتابه على الناس بجامع القيروان ونشرت الرايات السود التى هى شعار العباسيين . ثم إن المستنصر كان قد استوزر محمد الحسن بن على اليازورى ولم يكن من أهل الوزارة ، وإنما أصله من قرى فلسطين وكان أبوه فلاحا بها وكان هو من أهل الفلاحة، فاستخف به المعز بن باديس ولم يكتب اليه كما كان يكتب إلى الوزراء من قبله، فعظم ذلك علي اليازورى وحز فى نفسه فأكثر من الوقيعة فى المعز عند المستنصر وأغراه بحربه ؛ ولما كانت الدولة لا تأمن على جيوشها فى تلك المفاوز القاصية فقد أشار عليه أن يرميه بأولئك العرب الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فأن صدق الظن فى ظفرهم بالمعز وصنهاجة كانوا أولياء للدعوة وعمادا للدولة وعماله بتلك الربوع النائية وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة، وأمر العرب

البادية على أى حال أهون من أمر صنهاجة الملوك ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها .

رحلتهم الأولى إلى إفريقية :

وكان من الطبيعى أن يستمع المستنصر لمشورة وزيره ، ولا بد أنه قد وجد فى هذه المشورة مخرجاً يحتال له ، ولعله — إن صحت الفراسة فى العرب — يشفى غيظه من ابن باديس الذى عدا طوره وشب عن طوقه وانتكس بأمر الدعوة والولاية ، وسرعان ما أرسل الخليفة وزيره إلى أحياء أولئك العرب بالصعيد ، وكان همه الأول أن وفق بينهم وأزال الخلاف الواقع بين رياح وزغبة ، ثم فاوضهم فى الغرض المهم ، وأغراهم بما فى تلك البلاد من الخيرات والثمار والزروع ، وكتب لهم بالولاية على كل ما يفتحونه من بلاد المعز ، وأعانهم على السفر فأغدق لأمرائهم فى العطاء ووصل عامتهم بدينار و بعير لكل واحد منهم ووعدهم بالمدد والعدد ، فجمع العرب جموعهم ووحدوا صفوفهم وفزعوا للأمر الذى انتدبوا له فى حشد جرار وجيش لجب ، وكتب اليازورى إلى المعز بذلك يقول : أما بعد فقد أنفذنا اليكم خيولا فحولا وحملنا عليها

رجالا كهولا ليقضى الله أمراً كان مفعولا [1]

ولقد كان فى هذه الرحلة كثير من بطون هلال وسليم . منهم رياح والأثبج وزغبة ودياب ولهب وعرف ومرداس وبنو ثور و بنو عطية، وكان معهم كثير من فزارة وأشجع من غطفان وجشم من هوزان وهلال بن مرة والمفضل من بطون اليمنية وطرود من فهم بن قيس وغيرهم من البطون والأفخاذ والعشائر، ولكنهم كانوا جميعاً مندرجين في هلال وخاصة فى الأثبج منهم ، لأن الرياسة كانت لهم والأمارة فيهم ، وكان على رأس الراحلين جملة من الرجال المذكورين بالبطولة والشجاعة والمتقلدين للرياسة والإمارة، منهم الحسن بن سرحان وأخوه بدر وسلامة بن رزق المشهور عند العامة بأبى زيد الهلالى ودياب بن غانم والفضل بن ناهض وزيد العجاج بن فاضل وزيد بن زيدان وموسى بن يحيى وشامة بن أحمير وأخوه صلصيل ومليحان بن عباس وفارس بن أبى الغيث وأخوه عامر والفضل ين على ويحيى بن مؤنس وكلهم أبناء عمومة يجمعهم النسب المشترك ويؤلف بينهم الغرض المتفق، وهم يذكرون

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤ و ١٥٩ وابن الأثير جـ ٦ ص ٢٣٥

فى القصص الذى يحكى، وقد يقع فى أسمائهم من التحريف بقدر ما يلصق بهم من التخريف .

وخبر هذه الرحلة يذكره المؤرخون غالباً بعنوان : دخول العرب إلى افريقية . وهم يختلفون فى تحديد تلك البقعة من الأرض، فالبكرى يقول : إن أفريقية تحد شرقاً ببرقة وغربا بطنجة ، وهى تمتد من الشمال إلى الجنوب من شواطىء بحر الروم إلى الرمال التى فى أول السودان . ويقول الأصطخرى : إن إفريقية تقع ما بين برقة وتاهرت. ويقول أبو الفدا : إن إفريقية تبتدىء من الحد الشرقى لأقليم بجاية وتنتهى عند برقة و إن بجاية وبونه وقفصة تقع خارج إفريقية . ولكن ابن خلدون يضيق من حدود هذا الإقليم ويطلق هذا الاسم على الجزء الأوسط والشمالى من بلاد تونس ويقول إنه يقابل طرابلس وبلاد الجريد وأقليم قسطنطينة ، ومهما يكن من اختلافهم فى تحديد ذلك الإقليم فإن العرب قد دخلوه من قبل ، وقد تم فتح تلك البلاد على يد عقبة ابن نافع سنة خمسين للهجرة ، وقد وفد عليها كثير من القبائل العربية وكان يستوطنها لذلك العهد بنو قرة وهى قبيلة تنسب

فى هلال بن عامر ، أى أنهم أيضاً من الهلاليين ومن أعرقهم فى النسب[(١)]

بنوقرة فى برقة :

ولقد سبق بنوقرة إخوانهم فى الدخول إلى افريقية ، ولهم فى ذلك أيضاً أخبار وأحداث رهيبة . وذلك أن الحاكم الفاطمى انتدبهم للسير مع يحيى بن على الأندلسى لنصرته على صنهاجه فخرجوا معه ولكنهم خذلوه وتخلوا عنه ، ثم عادوا إلى برقة واستوطنوها ، فأرسل إليهم الحاكم فامتنعوا فخدعهم ببذل الأمان لهم ، فلما حضر وفدهم إلى الاسكندرية قتل عن آخره ، وقد أمعن الحاكم فى الاستبداد بهم والتضييق عليهم ؛ ثم كانت ثورة أبى ركوة وخروجه على الحاكم فانضم إليه بنوقرة وظاهروه حتى كاد يتم له النصر على الفاطميين ، ولكنهم عادوا فخذلوه ومكنوا الحاكم منه . وبهذا صلح الأمر بينهم وبين الحاكم وهدرت جنايتهم القديمة ولكنهم لم يسكتوا على هذا ، بل إنهم فى سنة اثنتين وأربعمائة اعترضوا هدية مرسلة من باديس بن المنصور ملك

(١) راجع البيان والإعراب للمقريزى ص ٣٢ و٣٣

صنهاجة إلى مصر فنهبوها ثم اقتحموا برقة وغلبوا العامل عليها ، ولم يزل هذا شأنهم حتى نزل عليهم إخوانهم من بنى هلال فتلقوهم بالقبول واندمجوا فيهم ، ويقال إن شيخهم ماضى بن مقرب قد أصهر إلى الحسن بن سرحان فى الجازية من بعد شكر ، وتعتبر غزوة بنى قرة لأفريقية الغزوة الأولى ، وغزوة بنى هلال الغزوة الثانية ، وتقول دائرة المعارف الإسلامية إن الغزوة الثانية هى الغزوة التى يحكى عنها ذلك القصص الشائع بين الناس

الرحلة الثانية :

ولقد كانت برقة عندما نزلها بنو هلال أرضاً عامرة بالخيرات ناضرة بالزروع والثمار ، وقد استطاع العرب أن يسيطروا على ذلك الإقليم من جميع أطرافه ونواحيه ، وقد أمعنوا فى التخريب والنهب كعادتهم ولجوا فى الفساد على طبيعتهم ، وكأنهم وجدوا العيش أطيب مما كان فى صعيد مصر وصار لهم قسط فى الحرية أوفر مما كانوا عليه فى ساحة الخلافة ، فكتبوا إلى ما تبقى من إخوانهم فى مصر وحسنوا لهم الرحلة إليهم واللحاق بهم ، فرحلوا بعد أن أجازهم اليازورى واقتضاهم عن كل شخص ضعف ما أعطاهم فى

الرحلة الأولى ، وما زالوا يغذون السير إلى أن وافوا إخوانهم في برقة .

فاضت جموع الهلاليين وإخوانهم على أفريقية في سنة أربعين وأربعمائة للهجرة كالجراد المنتشر على حد ما نعتهم به المؤرخون ، فكانوا زهاء الأربعمائة ألف أو يزيدون ، وكلهم طامع في الغنم نازع إلى الفتح ، إذ كتب لهم الخليفة الفاطمي بالولاية على افريقية واقتسام أقاليمها وترك لهم تحقيق هذا بسيوفهم وتوطيده برماحهم ، وكأني بالقوم قد خمرتهم هذه الثقة وغمرتهم روح العزة فاندفعوا في طريقهم كالسيل الجارف ، لا تصدهم قوة ولا تردهم عقبة ولا يعصم من طغيانهم حصن .

وكانت برقة في طريقهم منزل ضيافة لهم على إخوانهم السابقين من بني قرة والذين رحلوا منهم الرحلة الأولى كما أشرنا من قبل ، وقد غمرت جموعهم جميع ولاية برقة ، واحتشدوا في المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا وسرت وغيرها من المدن العامرة ، وطابت لهم خيراتها وأرزاقها ، ثم خلفوا عليها قبيلة لهب من بني سليم وأحلافها رواحة ونصرة وعميرة ، وانطلقت بطون هلال وقبائل دياب وعرف وزغبة في طريقهم لا يبقون على شيء

زايل العرب برقة ومضوا فى طريقهم يفتحون البلاد ويجتاحون العباد ويستعمرون الأقاليم حتى وصلوا إلى أفريقية فى سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، ثم تدفقت قبائل رياح والأثبج وبنى عدى على قلب أفريقية قصداً إلى القيروان . يقول ابن الأثير : فلما رأى مؤنس بن يحيى المرادى أمير رياح قصدهم هذا قال لهم : ليست المبادرة إلى القيروان عندى برأى . فقالوا إذن كيف تحب أن نصنع ؟ فأخذ بساطاً فبسطه على الأرض ثم قال لهم : من فيكم يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه ؟ فقالوا كلهم لا نقدر على ذلك . فقال : فهكذا القيروان . فخذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ . فقالوا: إنك لشيخ العرب وأميرهم وأنت المقدم علينا ولسنا نقطع برأى دونك . وعلى هذا كانت خطتهم فى فتح البلاد ودخول القيروان من بعد .[1]

ملاقاتهم للمعز بن باديس :

ولما علم المعز بن باديس بتوغل القوم وقدومهم لمنازلته ، وبلغه

(١) راجع ابن الأثير ص ٢١١ وما بعدها

الخبر عن مكانة مؤنس بن يحيى فيهم وسيره فى طليعتهم ، أسرع إلى استمالة هذا الأمير وكتب إليه يستدعيه وأغدق عليه العطايا والهبات . وكأن المعز قد أراد بهذا أن يسلك طريق الحيلة وأن يغلب القوم بالاستمالة والتفريق بينهم، ولكن هذا لم يجده شيئاً ، فإن القبائل الأخرى من هلال وأخواتهم قد اندفعوا فى قصدهم ولم يجزوا المعز بما فعل من الإحسان كما يقول بن الأثير ، بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وحاصروا المدن، وسرح اليهم المعز الجيوش المتتابعة فأوقعوا بهم الهزائم المنكرة ؛ فحينئذ أدرك الخطر ونهض للامر بنفسه وخرج لهم فى جيش جرار من من البربر وقبائل زناتة وصنهاجة بعد أن تألفهم والعرب الذين تبقوا من أيام الفتح الأول، فكان له من ذلك ثلاثون الف فارس ومثلهم من الراجلين، والتقى الفريقان قريباً من جبل «حيدران» بالجنوب الشرقى على الطريق المتسع بين قابس والقيروان ، وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس ، فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم ، فقال لهم مؤنس بن يحيى : ما هذا يوم فرار . فقالوا : أين نطعن هؤلاء

وقد لبسوا الـكـدا غانات والمغافرة . فقال : فى أعينهم . فسمى ذلك اليوم بيوم العين .

التقى الفريقان ووقعت الواقعة قاسية عنيفه ذهب فيها كثير من فرسان الفريقين ورجالاتهم، ولـكن العرب الفاتحين صدقوا فى موقفهم . وانحاز إليهم عرب الفتح الأوائل استجابة للعصبية القديمة، وانخذلت زناتة وصنهاجة عن المعز، فحاول الرجل أن يثبت فى جنده الخاص وعبيده، وكان عددهم نحو عشرين ألفاً أو يزيدون ، ولـكن القتل كثر فيهم واستمرت الهزيمة عليهم، فأدرك المعز أن الصبر لا يجدى وأن للغزاة شراسة لا يحتملها جنده، وحدة ولا يردها عدده فرجع إلى القيروان، وقد غنم العرب فى هذه الموقعة كثيراً من المغانم واستولوا على كثير من المال والمتاع والفساطيط والرايات .

على أن المعز لم يهن ولم يستسلم بأزاء هذه النكبة القاصمة، فحاول محاولة أخرى لإنقاذ ملـكه من أولئك الغزاة الشرسين ، فجمع جموعه مرة ثانية وخرج مبكراً فى يوم عيد النحر من تلك السنة بجيش قوامه عشرون ألف فارس وهجم على العرب وهم فى صلاة العيد وأعمل فيهم القتل والطعن ، فسارعوا إلى ركوب خيلهم

وصدقوا فى الوقوف له وكروا عليه كرة عنيفة فانخذلت صنهاجة أمامهم ، فعاد المعز إلى جمع جموعه وخرج بنفسه فى جيش كبير من صنهاجة وزنانة وتصدى للعرب عند منازلهم قريباً من جبل « حيدران » فشب القتال بينهم واشتد الطعن والنزال ، ووقف العرب على عادتهم موقف صدق وصبر ، فانهزمت صنهاجة أمامهم بعد أن قتل منها ثلاثة آلاف وثلثمائة، ثم تبعتها زنانة، فثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيما ووقف موقفاً مشهوداً ، ولكن العرب شددوا عليه، ففر أمامهم وانخذل إلى المنصورية وشرع فى تحصينها فأحاطها بسور شاهق امتد به حتى أوصله إلى القيروان فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة، حتى يعصم نفسه من أذى هؤلاء العرب ويضع حداً لتحرشهم بملكه[1] .

دخولهم القيروان :

أتم المعز بناء السور، وهيهات أن يرد هؤلاء الأعراب بناء أو يعصم من طغيانهم سور، فقد تعقبوا المعز فى قرارة ملكه واندفعوا من ورائه يخربون ويعيثون حتى انتهوا إلى القيروان واقتسموا

---

(١) ابن الأثير .

ما فتحوه من البلاد فيما بينهم سنة ستوأربعين وأربعمائة، فكان لزغبة طرابلس وما يليها ، ولمرداس بن رياح باجة وما بعدها ، وأخذوا بعد ذلك فى محاصرة القيروان نفسها، فمنعوا عنها كل صلة بالخارج ، وشددوا على القرى والضواحى، ووقع الأذى والضرر بالناس ، وطال أمد الحصار وضجرت الرعية من طوله ؛ بل لقد استطاع الغزاة أن يقتحموا الأسوار وأن ينازلوا المعز فى داخل القيروان ، ففر السكان إلى تونس وجلوا عن منازلهم وأملاكهم نجاة بأنفسهم من بطش القوم وفتكهم، وأدرك المعز أنه لاقبل له بحماية ملكه من هؤلاء الطغاة الفاتحين ، ففاوضهم على الصلح وتخلى لهم عن القيروان وأمر السكان بإخلائها ، ونزح فى أهله وحشمه سنة تسع وأربعين وأربعمائة مع خفيره منهم مؤنس بن يحيى[١] أمير رياح الذى ذكرنا خبره من قبل ، فنزل بالمهدية على ابنه الأكبر الأمير تميم عامله على المدينة ؛ و يعقب ابن خلدون على هذه الحادثة فيقول : ودخل العرب القيروان فانتهبوها وأقام المعز بالمهدية وتنزى البوار فى البلاد[٢] .

---

(١) ويذكره ابن خلدون أيضاً باسم يونس .

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٥٩ .

ولا شك أن امتلاك العرب للقيروان قد مكنهم من ناصية البلاد، ولا شك أن هذا الغنم الكبير قد صيرهم تجاه وضع جديد، فأعادوا اقتسام البلاد فيما بينهم، وغيروا ما كانوا أجروه من القسمة من قبل، وقد كان من جراء هذا التقسيم أن فازت هلال و بطونها بنصيب الأسد، فكان لها من تونس إلى الغرب، وكان لسليم وقبائلها الشرق، وقد ظل الغرب مسرحاً للحوادث والوقائع التى تتابعت فيما بعد بين هؤلاء الأعراب و بين القائمين بالأمر على تلك البلاد .

تحطيم حصن القيروان العظيم :

ولكن كيف دخل الهلاليون القيروان ؟ وكيف اقتحموا ذلك السور المتين الذى ضرب به عليها المعز؟ وكيف استطاعوا أن يحطموا مقاومة العدو داخل القيروان وخارجها؟ إن الرواية التاريخية تمر بذلك مراً عابراً لا يعدو الإفادة باقتحام السور بعد طول الحصار، ولكن القصة قد عنيت بتفصيل ذلك وصورته تصويراً رائعاً بارعاً يطابق ما يجرى فى أساليب الحروب الحديثة من ضروب الحيلة وفنون التجسس، إذ تفيد بأن الهلاليين أنفسهم قد ضجروا

من طول الحصار وثقلت تكاليفه عليهم ، ورأوا أن المدينة منيعة التحصين أمامهم، وأن أنصارهم داخلها قد طال بهم الانتظار، ولكن كل هذا لم يفت فى عضد القوم بل زاد فى رغبة زعيمهم أبى زيد الهلالى وإصراره على اقتحام السور وتحطيم مقاومة العدو مهما كلفه الأمر ، وفى ذلك يقول البيت السائر :

ولا بدمن لطمة على باب تونس ولو حال دونى ودونها العقبان

وقد حاول هذا الرجل الداهية أن يمهد لسيوف قومه بالحيلة، وقد هداه تفكيره إلى ابتداع حيلة طريفة كان هو بطلها وكانت المرأة وسيلتها ، إذ خرج سرب من العذارى الجميلات ومعهن عبد أسود لم يكن إلا أبو زيد الهلالى نفسه متنكراً، ثم قصدن إلى سور المدينة فى موكب يموج بالفتنة والخلاعة، وما زلن يتصبين منصورا القائم على الباب ويلتمسن منه التفرج على المدينة والطواف بأسواقها ويغنين له أغنية مطلعها :

افتح يا منصـــور افتح باب الســور ،
افتح للعــــــذارى . . . .

ففتن الرجل بجمالهن وخلب بإنشادهن ، ففتح لهن ، وبهذا تمكن عبدهن « أبو زيد » من الاطلاع على الأسرار الداخلية فى

المدينة ، واستطاع أن يتصل بأنصار الهلاليين وأن يتبين مواطن الضعف فى استحكامات العدو وفى مقاومته ، ثم رجع إلى قومه بمعلومات نافعة مكنتهم فيما بعد من اقتحام السور و بسط نفوذهم على القيروان .

وثمة ناحية أخرى فى هذا المقام تشير إليها القصة وهى تدل على أن الهلاليين وأخوانهم رأوا أن يحتاطوا لأنفسهم قبل القيام بالهجوم على القيروان ، فعقدوا مجلس الشورى وقرروا أن يقوم الأمير دياب بن غانم فى مؤخرة النجوع الهلالية يحمى الإبل و يحرس الأموال و يذب عن الساقة و يؤدى حق الشيوخ والنساء والذرارى الضعيفة ، وقد قام دياب بهذه المهمة وأبدى فيها من الصرامة والمهارة ما دل على فروسيته ؛ ثم لما ابتدأ — الهجوم واشتدت وطأته اقتضى الأمر نقله إلى المقدمه لمناجزة العدو والتغلب عليه، وقد كان له فى ذلك مجال واسع تفيض القصة فى تصويره وفى تقديره .

هذه تفاصيل قد انفردت القصة بذكرها ، ونحن إذا جردناها من حواشى المبالغة نجدها سائغة مقبولة، بل أننا نلمح فى الرواية التاريخية ما يؤيدها، فقد ذكر ابن خلدون أن زغبة قبيلة دياب

قد قدر لها القوم الإقامة فى برقة أول الأمر ثم نقلت بعد الهجوم على القيروان إلى المقدمة ، وعلى أى حال فقد تم النصر للأعراب الغزاة بعد حصار شديد الوطأة و بعد وقائع وحروب دامية قاسية ، وقد صارت لهم القيروان بأموالها وقصورها .

بعد الاستيلاء على القيروان :

كان اقتحام الأعراب للقيروان وتغلبهم على ضواحيها ضربة قاسية قضت على آمال المعز بن باديس وهدت كيان الدولة الصنهاجية الفتية ، فذهبت بما كان لها من عز ومجد ، وأتت على ما كانت فيه من النعيم الوارف والبذخ الفياض ، ولقد رآها العمال والولاة فى دولة المعز فرصة سانحة فاستقل كل منهم بما تحت يده حتى صارت الدولة الكبيرة إلى جملة ولايات كل ولاية منها تحت حاكم مساط أو ثائر متمرد .

على أن الشر قد استحصد إلى أبعد من هذا الحد إذ أمعن الهلاليون وإخوانهم فى مضايقة المعز وتعقبه ، فنزلوا عليه المهدية وضيقوا عليها بمنع المرافق و إفساد السابلة ، فاستكان الرجل لما كان ، وصبر عليها محنة قاسية تحيق بكل عزيز ، وقضى بقية أيامه

على مضايقة هؤلاء الأعراب بالتقرب منهم والمحالفة معهم والإصهار إليهم حتى مات سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

وبويع من بعده لابنه تميم بن المعز فحاول أن يدرك شيئاً من العرب فغلبوه على أمره وحاصروه فى الدائرة الضيقة التى تركها له والده ، فلم يكن له إلا ما ضمه السور من سوسة على ساحل البحر إلى قابس؛ ولما تمت الغلبة للقوم على الصنهاجيين مضت جموعهم فى طريقها تأتى على الضواحى والأمصار و بلاد الزاب ، فاصطدموا فى ذلك بقبائل زناتة وأحلافهم من البربر ، وكانت زناتة كالهلاليين فى شراسة البداوة وصرامة الطباع وشدة البأس والتمرس بأساليب الحرب ، فصاحوا بالهلاليين صياح جنود وجهت لجنود ، وجهز صاحب تلمسان من بنى خزر لملاقاتهم بقيادة وزيره وقائده أبى سعدى خليفة، فكانت بينهم حروب ووقائع انتصر فيها الهلاليون وقتلوا أبا سعدى بنواحى الزاب، وبسطوا سلطانهم على الضواحى من جميع الجهات، وعجزت زناتة عن مدافعتهم فصالحوهم عليها واستكانوا لبطشهم .

دبيب النزاع والخلاف :

ولم يكن هؤلاء الأعراب عندهم الاستعداد لبناء ملك مستقل ولا فيهم الميل إلى توطيد دولة متماسكة لها شخصيتها ولها طابعها، ولكنهم كما قلنا كانوا أهل بداوة وشراسة ، فظلوا يقيمون بالضواحى ويتنقلون بين المرابع والمشاتى. يقطعون الطرق ويفسدون السابلة ويقعدون لملوك أفريقية والمغرب بالمراصد ويأخذون منهم الأتاوات على التصرف فى أوطانهم كما يقول ابن خلدون ، وقد ظلوا هكذا يتدافعون مع القبائل الأخرى على الأمصار، ويعينون الملوك والولاة فى تحقيق أغراضهم ويعضدون الثوار فى نيل أطماعهم نظير ما يتقاضونه من الأتاوات والهبات .

ولكن أرأيت إلى النار يأكل بعضها بعضاً إذا لم تجد ما تأكله؟! لقد غدا هذا شأن هؤلاء الأعراب، فانهم لم يلبثوا أن أخذوا يتقارعون على البلاد والمحلات ، إذ أخذ ملوك صنهاجة وزناتة يوقعون بينهم ويسلطون بعضهم على بعض، ولعلك تذكر مما قدمنا لك أن الخلاف كان مستعراً بين هؤلاء الأعراب أيام كانوا بمصر، وأن الخليفة الفاطمى أصلح بينهم حين أرسلهم إلى

أفريقية؛ فكان من الطبيعي أن ينكأ هذا الخلاف القديم وأن يشب أوراه لأدنى قدح، وأن يمتد إلى خلاف بين جميع البطون والقبائل تقضى به العصبية البدوية. هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فأنهم كانوا يتنافسون على النزول فى المواقع وعلى الرياسة والسيطرة، ومن ثم كانوا يختلقون فى معاونة الملوك من أصحاب الولايات والإمارات، وكأن هؤلاء الملوك والولاة تبينوا هذا الضعف فى تماسكهم فدخلوا عليهم من هذه الناحية، فكانوا يحتمون من بعضهم ببعضهم الآخر؛ ولهذا كله استفحل الشقاق والصراع بين هؤلاء الأعراب بعد أن كانوا وحدة تمسكهم الغاية المرموقة ويضمهم الغرض المشترك.

وأكثر من هذا فقد دب الشقاق والصراع بين بطون الاثبج وهى أقوى بطون الهلاليين وكانت لهم الرئاسة، ولكنهم لم يكادوا يفرغون من قتال صنهاجة حتى وقعت الفتنة بينهم، وذلك أن الحسن بن سرحان وهو من دريد قتل شبانة بن الأحيمر من كرفة غيلة، فطوت كرفة له على الهائم، ثم إن أخته الجازية غاضبت زوجها ماضى ابن مقرب من قرة ولحقت بأخيها فمنعها منه، فاجتمعت قرة وكرفة على فتنة الحسن وقومه، وظاهرتهم عياض،

ولم تزل الفتنة قائمة إلى أن قتل الحسن بن سرحان . قتله أولاد شبانة بن الأحيمر وثأروا منه لأبيهم ، ثم كان الغلب بعده لدريد على كرفة وقرة وعياض ، وهكذا ظل التناحر بين هذه البطون دواليك .

على هذه الحال لبث الهلاليون وإخوانهم فى الشقاق على أنفسهم والثورة على الملوك والولاة الذين يحكمون الأمصار، وعلى هذه الحال لبثت أفريقية فى جميع نواحيها وما يتصل بها من بلاد المغرب وهى مسرح للفتنة والثورة ومجال للنزاع والنزال مما أدى إلى خراب البلاد والإضرار بالعباد ، وزاد فى سوء الحال واستفحال الخراب توالى الهجمات الخارجية على الشواطىء وطمع أمم النصرانية فى أقاليم أفريقية مما يطول شرحه وليس هذا البحث القصير موضع تفصيله .

ظهور دعوات جديدة :

ولما ظهرت دولة الموحدين وتم لها السلطان على سائر دول المغرب فى أواسط القرن السادس للهجرة ، وزحف شيخهم ابن عبدالمؤمن على أفريقية ، كانت له مع هؤلاء الأعراب أخبار وأحداث

طويلة . ذلك أنهم عاهدوه على الطاعة والولاء فى أول الأمر ، ووفد عليه أميرا الأثبج وجشم لهذا العهد فتلقاهما بالإكرام وعقد لهما على قومهما ، ولكنهم عادوا فنقضوا طاعة الموحدين وخرجوا على ولائهم ، فنازلهم الموحدون ، فوقف العرب لهم وأثبتوا فى مستنقع الموت أقدامهم كما يقول ابن خلدون ، ولكنهم لم يصبروا على الثبات فاستلحقهم الموحدون وغلبوا عليهم وغنموا أموالهم وأسروا رجالهم وسبوا نساءهم ، فاضطروا إلى الإذعان للموحدين والدخول فى دعوتهم ، وأطلق ابن عبد المؤمن أسراهم وأرجع أموالهم ، وجرت بينهم الأمور على الود والتحالف ، وكانوا للموحدين أكبر عون وسند فى غزو بلاد الأندلس وتأديب الأقاليم الثائرة عليهم .

ثم كانت فتنة ابن غانية وخروجه على الموحدين ومنازلته لهم فى بجاية سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، فمالت إليه قبائل جشم ورياح وجمهور الأثبج من الهلاليين وانحازت ، زغبة إلى الموحدين ، ونزل بنو غانية فى جموعهم إلى قابس وطلبوا إلى الخليفة العباسى ببغداد تجديد العهد لهم فعقد لابن غانية وأذن له فى حرب الموحدين ، واجتمعت له قبائل بنى سليم وظاهره بعض ولاة الأقاليم ، وخرج ابن غانية فى جيوش جرارة من هذه القبائل ، فاستولى على الضواحى

وافتتح بلاد الجريد وقفصة وغيرها من المدن، فنهض إليه المنصور صاحب الموحدين فى جيوش جرارة ، فهزمهم ابن غانية فى أول الأمر ، فعاود المنصور الهجوم عليه من ناحية تونس فهزم جموعه هزيمة منكرة وما زال يمعن فى تتبعهم حتى شردهم فى صحارى برقة، وعادت جموع الهلاليين و إخونهم إلى الإذعان له والدخول فى طاعته، فنفاهم إلى المغرب الأقصى وأنزل جشما ببلاد تامسنا ورياحاً ببلاد الهبوط ، وأبقى زغبة فى مكانها من المغرب الأوسط بين مصاب وجبل راشد بعد أن اعتزلوا إخوانهم الهلاليين وتركوا مكانهم الأول بقابس وطرابلس .

نهاية القوم :

واستمرت على ذلك أحوال هذه القبائل من هلال وسليم وأتباعها كما يقول ابن خلدون وهم على طبيعتهم فى التنازع والتصارع، والأيام تعلو بهم وتنزل، والأحداث تعطيهم وتأخذ منهم حتى انقرض من بطونهم من انقرض وبقى منهم أعقاب وفلول فقدوا شخصيتهم وضاعت سطوتهم، وانطوت فى بطون الأيام

وتصاريف الأقدار سيرتهم . سنة الله فى سائر خلقه وطبيعة الزمن في معاملة أهله .

وأما بعد ، فهذا مجمل لتاريخ أولئك القوم ، أوردناه ليكون أساساً لما نأخذ فيه بعد من دراسة القصص الذى يحكى عنهم والذى يسمر به أهل مصر فى ناديهم ، وهم لا يعرفون أين من التاريخ حقيقته ، ولا يحسبون أن له أصلاً صحيحاً فى حكايته ولكنا نرى من الوفاء لحق التاريخ ولواجب البحث أن نقول كلمة فى النتائج التى تحققت من خروج أولئك العرب إلى أفريقية قبل أن نمضى فى وجهتنا .

نتائج وآثار :

ومن أجل أن نقف على النتائج والآثار التى حققتها غزوة بنى هلال وإخوانهم لأفريقية وما يتصل بها من الأقاليم . لا بد من أن نرجع بالنظر إلى صلة العرب بتلك البلاد ، وأن نعود إلى تاريخ دخولهم إليها وهو تاريخ طويل يمتد إلى صدر الإسلام ، إذ استطاع القائد الإسلامى العظيم عقبة بن نافع أن ينتزعها من تحت الروم ، وأن يخضع القبائل البربرية التى تقطنها لحكم الإسلام ، وأن

يؤسس مدينة القيروان فى سنة خمسين للهجرة ، ولكن هذه الغزوة التى قام بها عقبة لم تكن فى الواقع كافية لتوطيد سلطان العرب على جميع الأقاليم ، ولم تكن حداً فاصلاً بين عهدين فى تاريخ تلك البلاد ، إذ ظلت أهم المدن والحواضر الحصينة فى يد الروم ، وظل البربر يناهضون الفاتحين فى مناسبات عديدة حتى اضطر زهير بن قيس خليفة عقبة إلى التقهقر أمامهم ، فلما جاء من بعده حسان بن النعمان استطاع فى عام تسع وسبعين للهجرة أن يخضع البربر لسلطانه، وأن ينتزع جميع الحواضر من يد الروم حتى قرطاجنة العظيمة .

وقد ظلت أفريقية منذ الفتح ولاية يرعى شئونها عامل مصر ويقوم بتدبيرها فيما يقوم به من الأعمال ، فلما كان عام ستة وثمانين للهجرة صارت ولاية قائمة بنفسها ولى عليها موسى بن نصير من قبل الخليفة فى دمشق ، على أن تلك البلاد ظلت مسرحا للتنازع والثورات العنيفة التى تزعزع أمامها سلطان العرب ، وفى عهد الخليفة المنصور العباسى حاول العرب توطيد سلطانهم مرة أخرى فى أفريقية فنجحت المحاولة إلى حد ما ، ثم قامت دولة الأغالبة وبسطت نفوذها على الإمارات والأقاليم، ولكن هذه

الدولة لم تكن تابعة للعباسيين إلا اسما فقط ، ثم كانت الدعوة الفاطمية الجارفة ، فمد الفاطميون سلطانهم على سائر أنحاء أفريقية وأقاليمها ، فلما انتقلوا إلى مصر أقاموا عليها واليـاً من قبلهم وتوطدت صلتهم بها على هذا الوضع حتى خرج ذلك الوالى عليهم وانحاز إلى الخلافة العباسية وخطب للخليفة العباسى فى دمشق ؛ فكان أن أرسلوا ببنى هلال وإخوانهم لإخضاع ذلك الوالى وإعادة هيبتهم فى تلك البلاد على ما مر بك من قبل .

فأنت ترى من هذا العرض التاريخى الموجز أن بلاد أفريقية وما يتصل بها من الأقاليم ظلت عهداً طويلا ميداناً للغزو والفتح، وأن صلة العرب بهذه البلاد ظلت عند وضع محدود مقدر ، وأن سلطانهم عليها بقى مزعزعا يتراوح بين الاستقرار والتقلص ، وأن القبائل البربرية التى كانت تقطن تلك البلاد بقيت قوية الشوكة واسعة الصولة راجحة بعددها وعصبيتها . فلما تمت رحلة عرب الهلالية وإخوانهم إلى تلك البلاد وجرى ما جرى من حروبهم فيها وقراعهم عليها، كان لذلك آثار واضحة فى تغيير الوضع السابق والاتجاه بالحياة هناك إلى وضع جديد له مظاهره وخصائصه ، وكان من أبرز هذه الآثار أن زادت نسبة العرب على نسبة البربر من

السكان الأصليين ، وأن استعربت تلك البلاد استعراباً إن لم يكن كاملا فهو أقرب إلى الكمال، حتى لقد فقد البربر كثيراً من مميزات شخصيتهم وقوميتهم تحت تأثير شخصية أولئك الأعراب القوية ونفوذهم الواسع ، فهجروا لغتهم ولهجاتهم تدريجاً وفقدوا أيضاً اسمهم القديم كما تقول دائرة المعارف الإسلامية .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن شراسة أولئك البربر قد خمدت تحت ضغط أولئك الأعراب وسيطرتهم حتى استطاعوا أن يتغلبوا على قبيلتى زنانة وصنهاجة العريقتين اللتين كانتا تسودان الصحراء الغربية فى القرون الأولى للهجرة، واللتين كانتا العقبة فى طريق الفتح الإسلامى لتلك البلاد ، فأخضعوهما لسلطانهم وفرضوا عليهما الجزية والأتاوات، ومن ثم أصبحت كلمة صنهاجى مرادفة تقريباً لكلمة عبد أو رقيق[١] . ومن ثم نستطيع أن نقول إن استعراب الأقطار المعروفة الآن بشمال أفريقية مدين فى وجوده لغزوة الهلاليين ، ولولا هذه الغزوة لبقى الجنس البربرى هو المسيطر على تلك البلاد بعاداته وتقاليده ونفوذه وسيطرته .

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية المادة الخاصة بالبربر

على أن دخول بنى هلال إلى بلاد أفريقية وإن غير فيها وضع الحياة من هذه الناحية، فإنه لا شك قد حفظها من ناحية أخرى هى ناحية الروح والمظهر. ذلك لأن البربر الذين كانوا يقطنون تلك البلاد من قديم إنما كانوا قبائل يحيون حياة البدو فى الأخذ بأوضاع العيش وأساليب الحكم والعمران؛ ولقد عاشوا طول حياتهم متألبين على أوضاع الحضارة الطارئة عليهم سواء على يد الروم أو بالفتح الإسلامى من بعد، فكان دخول العرب الهلالية إلى تلك البلاد امتداداً لهذه الروح واستمراراً لهذا الوضع، ولقد ظلت هذه الروح البدوية مسيطرة على تلك الأقطار آماداً طويلة، ولا تزال آثارها باقية واضحة إلى هذه الأيام فى الأقاليم والسهول والهضاب والصحارى التى تكتنفها، ولقد كانت هذه الصبغة البدوية التى تعيش عليها القبائل التى هناك إلى الآن والتى تشيع فيها النخوة العربية والنعرة البدوية هى الصخرة التى ارتطم بها الاستعمار الفرنسى ثم الاستعمار الإيطالى من بعد . . . إذ وقفت تلك القبائل السنين الطويلة تحمل سلاحها فى وجه الاستعمار الغاشم، تأبى الخضوع والإذعان، وتؤثر الموت والتشريد على حياة الذل والاستعباد، وليست مقاومة الأمير عبد القادر الجزائرى

لفرنسا ومجاهدة الشهيد عمر المختار لإيطاليا إلا مظهراً لتلك النخوة البـدوية التى سيطرت على تلك البلاد قروناً طويلة وامتدت فيها متسلسلة من قبائل البربر إلى قبائل بنى هلال .
وهناك أثر آخر لدخول بنى هلال وإخوانهم إلى أفريقية، وهو فى مبعثه أثر نفسانى كان نتيجته تلك الحروب الدموية التى طالت بين هؤلاء الأعراب وبين سكان تلك البلاد ، وما أدت إليه من ضروب القوة والعنف وفنون النهب والسلب ، ثم ما صبغت به الحياة فى نفوس أولئك الناس من الخروج على الأوضاع والاستهانة بالحدود والزواجر، فكان ذلك مما دعا إلى ظهور كثير من أصحاب الدعوات الدينية أو التى تلبس لباس الدين ، يدعون دعوتهم إلى الإنابة والأخذ بما يرون من التعاليم المنقذة ، و إنهم ليجدون فيما يتفشى فى الحياة القائمة من ضروب الظلم واستحكام الجهل ذريعة لهم وشعاراً لدعوتهم ، ولقد كثر عدد هؤلاء وتتابع فى ألوان وأساليب تتفق فى أصولها و إن اختلفت فى تفاصيلها ، ولو أن مؤرخا أراد أن يسطر تاريخ هؤلاء الدعاة وما كان لدعواتهم من أثر وما قامت عليه من الأسباب والمسببات ، لـكتب فى ذلك تاريخاً حافلا ولوجد مادة واسعة للافاضة لايجدها على هذا

الوضع فى ناحية أخرى فى تاريخ الأقطار الإسلامية ، ومن العجب أن أصحاب تلك الدعوات كانوا يجمعون الأنصار ويجندون من حولهم الأعوان ، وكثيراً ما كانت تتفشى دعواتهم ودعاياتهم ثم يصيرون هم الآخرون مصدر عنف وظلم ولون من الحياة القائمة لا يختلف إلا فى اسمه ولفظه .

وهنا لابد من وقفة قصيرة ، فإن جميع المؤرخين الذين أشاروا إلى غزو الهلاليين لأفريقية قد شنعوا على القوم بما اقترفوا من ضروب السلب والنهب ، واتهموهم بالغلظة والقسوة فيما اجترحوا من فنون الفساد والفتك ، حتى ابن خلدون الذى حفل بأخبارهم وأثنى على بطولتهم شنع عليهم بهذه التهمة فى غير موضع ، وقد وصفهم أحد المؤرخين المعاصرين بأنهم كانوا جندا همجا لا يخاف الله ولا يحترم المخلوق . والواقع أن هؤلاء الأعراب كانوا لا يبقون على شىء فى طريقهم كما قلنا من قبل ، وقد نهبوا المدائن والزروع والثمار ولكننا نستطيع أن نلتمس لهم فى ذلك علة تبرر هذا العمل أو على الأقل توضح الدافع لهم على هذا العبث وذلك الفساد . ذلك لأن هؤلاء الأعراب قد نزحوا الى أفريقية

---

(١) تاريخ تونس للاستاذ حسن عبد الوهاب

كجند طارق بن زياد حين فتح الأندلس، ليس لهم من القوت والعتاد إلا مايستخلصونه من أيدى العدو .. فلأجل أن تأكل هذه الجحافل الكبيرة، ولأجل أن تجد من العتاد ما يعينها على الفتح، كان لا بد أن يعمدوا إلى ماعمدوا إليه من الإتيان على كل ما تصل إليه أيديهم .

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا نعرف أن هؤلاء الأعراب قد نشأوا على البداوة ودرجوا على الخشونة، وكانت حياتهم فى نجد وفى مصر حياة رحلة وانتقال وإغارة وسلب ، فلم تكن للمدن وللزروع فى نفوسهم من التقدير والاعتبار ما لها فى نفوس أهل الحضر الذين استطابوا العيش فى ظلالها والإقامة فى رحابها ، وكأنى بهؤلاء الأعراب قد أرادوا بصنعهم هذا أن يزيلوا كل أثر للحضارة فى تلك البلاد وأن يطبعوها بطابعهم وأن يخلعوا عليها مظهر بداوتهم الذى يؤثرونه لا الذى يؤثره غيرهم، حتى لا تكون فيها بعد وجهة طامع أو مقصد فاتح، وحتى لا يرجع الخليفة الفاطمى فيستخلصها منهم حباً في خيراتها وحرصاً على ثمارها وعمرانها .

على أن هناك ناحية فى التعليل من الوجهة النفسية لا يصح أن نغفلها فى هذا المقام ، وهى ناحية لا تتصل بهؤلاء الأعراب

وحدهم ولكنها شاملة لجميع القبائل البدوية ، فإننا إذا ما رجعنا إلى التاريخ نجد جميع هذه القبائل كانت فى فتوحاتها وفى غزواتها تركب العسف والشطط ، وتسلك طريق النهب والفتك ، وتأتى على معالم الحضارة فى كل مكان تنزل به ، كأنهم بهذا يشبعون غريزة مكبوتة فى نفوسهم ، ويرضون بهذا التشفى من أولئك الحضريين الذين اعتزوا عليهم بوفرة النعيم وتعالوا عنهم بما يملكون من مناعم الحياة ، ولم يشذ عن هذا إلا عرب الفتح الإسلاميون ، لأنهم وجدوا فى تعاليم الدين رادعا يردعهم عن اقتراف هذا المنكر وقد كانوا فى غزوهم مبشرين بالدين أكثر منهم طامعين فى التسلط على غيرهم .

اننا لا نقصد بهذا دفاعا عن البربرية وسياسة التخريب ، ولكنا أردنا أن نكشف عن الباعث الذى حمل القوم على صنيعهم من الوجهة التاريخية ، وأن ندل على أنهم ما جروا فى هذا إلا على سنة أمثالهم من القبائل البدوية ، فمن الإسراف أن يلعنهم المؤرخون بهذا الصنيع ، وأن يشنعوا عليهم بهذه الفعلة ، وأن يطلقوا القول فى ذلك اطلاقاً من غير تبرير ولا تعليل .

الفصـــل الثـــانى

كيف نشأت قصة بنى هلال وكيف تطورت ؟

نشأة القصص الإسلامى :

فى حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال من ألف ليلة وليلة «أن مملوك التاجر حسن عند ما أراد أن يبرح دمشق رأى شاباً يجرى وهو يتعثر بأذياله . فقال له : مابالك تجرى وأنت مكروب ، وإلى أين تقصد؟ فقال الشاب: هنا شيخ فاضل يجلس كل يوم على كرسى فى مثل هذا الوقت يحدث حكايات وأخباراً، ويروى أسمارا ملاحا لم يسمع أحد مثلها، وأنا أجرى حتى أدرك موضعاً قريباً منه، لأنى أخاف أن لا أجد ذلك من كثرة الخلق . فقال المملوك له . خذنى معك. فقال الفتى : أسرع فى مشيتك . فأغلق المملوك بابه وأسرع فى السير معه حتى وصل إلى الموضع الذى يحدث فيه الشيخ بين الناس، فرأى شيخاً صبيح الوجه يجلس على كرسى يحدث الناس، فجلس قريباً منه ، وأصغى ليسمع حديثه ، فلما جاء وقت الغروب فرغ الشيخ من الحديث وانفض المجلس .. »

وإنما أوردنا هذه الحكاية لأنها تصوير صادق لحال المجتمع الإسلامى وبخاصة فى العراق ومصر ، بعد أن سقطت الهمم وانحلت العزائم وخضدت شوكة الخلافة بما منيت به من شرور الفتن ومآثم الكيد ومطامع الخارجين ، ولعل من المعروف أن القصص كان آداة استغلتها السياسة الإسلامية منذ فجر الاسلام فى الدعاية والترويج والغض والتشنيع ، ويقولون إن معاوية ابن أبى سفيان كان أول من أخذ بهذا السبيل ، فكان أول من ولى رجلا على القصص واهتم بشأنه . ولقد روى ابن أبى الحديد عن جعفر محمد بن على الباقر أنه قال : « لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل، ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال الشر فى كل بلدة فحدثوهم الأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا مالم نقله ولم نفعله ليبغضونا الى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن . . . »

ومهما يكن من شىء ، فإن القصص فى زمن معاوية وإلى عهد من بعده ظل يجرى فى دائرة الدين وما يتصل بمناقب الرجال

ومثالبهم، ثم لم يلبث ان ظهر القصص الأدبى، فكان الرواة يتلقفونه من أهل البادية ، و يحدثون به عند الخلفاء والولاة وفى مجلس الخاصة، فلما كان النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة، وكانت عوامل الانحلال قد تسربت إلى المجتمع الإسلامى وإلى جسم الدولة تحول القصص إلى أداة لهو وتزجية فراغ، وصار القصاص يتاجرون به بضاعة رابحة رائجة عندالعامة، حتى لقد كانوا يجلسون للتحدث به على قارعة الطريق ؛ وإنك لتستطيع أن تتصور حقيقة هذه الحال فيما رواه الطبرى فى حوادث سنة ٢٧٤ للهجرة إذيقول: « وقد تقدم الخليفة المعتمد إلى العامة بلزوم أعمالهم وترك الاجتماع والعصبية ومنع القصاص من القعود فى الطرقات على جانبى بغداد . . . » .

المجتمع المصري والقصة :

إلى هذا الوضع تحول القصص فى المجتمع الإسلامى ، وعلى هذا الوضع انتشر القصاص فى العواصم والأمصار يحدثون العامة و يحكون لهم و يشبعون رغباتهم بالتزيد والتهويل والاختلاق والتطويل ، ولقد امتازت مصر فى ذلك بالمكان الأول و بخاصة

فى القرن الرابع عند ما تم الحكم فيها للفاطميين ، إذ أقام هؤلاء الدعاة الدهاة حكمهم بالدعاية أكثر مما أقاموه بالسيف ، ومهدوا الطريق إليه بالترغيب أكثر مما مهدوه بالعسف، وكانوا من ذلك عند خطة مرسومة وطريقة بارعة تمتلك نفوس العامة وتستهويهم فدخلوا عليهم بالقصص فيما يتصل بالحرب والسياسة والدين والخلافة والأساطير والخرافات ، وكان القصاص الحكوميون يجتهدون فى وضع الأخبار والأسمار ، والقصاص الشعبيون يسايرونهم فى هذا الوضع و يجارونهم على هذا النهج ، والمصريون كما يقول ، الأستاذ الزيات : « سكان قطر زراعى ملموم الرقعة متصل العمارة يجود بالخير الكثير على الجهد القليل، فكان لذلك أهله قليلى الأسفار يؤمنون بكل خبر، كثيرى البطالة يميلون إلى اللهو والسمر » ، ومن ثم لم يمض إلا قليل حتى استطاع أولئك الفاطميون الطارئون على البلاد أن يصبغوا المجتمع المصرى بصبغتهم، وأن يكيفوه على غايتهم، وأن يخرجوه صورة مطابقة لظاهر دعوتهم ودعايتهم، فكانت القاهرة أشبه بالسامر العامر، كل يوم عند موسم جديد ومهرجان حادث وقصص يروى وأحاديث تشاع ، والناس فى الأندية والمجالس يقبلون على هذا متلهفين ، و يتقبلونه مبتهجين

مظمئنين ، ينحدر إليهم من أفواه القصاص سمراً شهياً ممتعاً ، ثم يرددونه عنهم ، وفيه ما فيه من التزيد والإغراق .

ولقد ظلت هذه الصبغة هى طابع المجتمع المصرى فى العهود التى توالت بعد الفاطميين ، ولا تزال بعض ألوانها إلى اليوم تبدو مقبولة محبوبة وإن كانت محصورة في طبقات خاصة، ولقد كان من الطبيعى أن يتميز القاص المصرى فى هذا المجتمع الخصيب ، وأن يكون محصوله فى ذلك وافراً ونتاجه وافياً، فكان أبرز وأوفى من أجدى فى هذه الناحية، وما «ألف ليلة وليلة» و«قصة الهلالية» و«قصة الظاهر بيبرس» و«قصة سيف بن ذي يزن» وغيرها من القصص، إلا من فيض براعة القصاص المصريين وقدرتهم على التحليل والإفاضة، سواء ما ابتدعوه منها ابتداعاً أو ما مدوا فيه بالتزيد والإغراق والاختراع والاختلاق . وإذا كان هؤلاء القصاص قد تناولوا « ألف ليلة وليلة » أصلا عن الفارسية مدوا فى فروعه وأساساً ارتفعوا ببنائه، فانهم كذلك فى قصة الهلالية تناولوها عن الأصل التاريخى، وأخذوها مما جري فى رحلة أولئك الأعراب إلى مصر، ثم إلى بلاد أفريقية، وما وقع لهم من الحروب والأحداث، وانتقلوا بذلك الأصل التاريخى إلى ميدان الخيال الفسيح ، ولقد

ظلوا على طول السنين حتى اليوم يمدون فيه و يزيدون عليه و يشتقون منه، حتى كانت تلك القصة الطويلة التي نراها متداولة مدونة في المطبوعات الرخيصة ، والتي يستوعبها أكثر العامة من أبناء مصر ، و بخاصة في القرى والأقاليم ، و إنها لمظهر امتيازلهم وأوضح أثر ثقافي عندهم وأنفذ سلطان على قلوبهم وعقولهم .

في أي عصر وضعت القصة الهلالية ومن الذي وضعها ؟

وأول ما يعن لنا ونحن بصدد الدراسة لهذه القصة أن نسأل على عادة الباحثين: في أي زمن وضعت ومن الذي وضعها ؟ ولقد أشار كلوت بك في الجزء الثاني من كتابه «لمحة عامة إلى مصر» إشارة عابرة إلى شغف المصريين بسماع هذه القصص وانقطاع الرواة للحديث بها و بعد أن أورد شيئاً مما تحكيه القصة عن أبي زيد الهلالي قال : والمفهوم أن قصة أبي زيد هذه كتبت في القرن العاشر من الميلاد المسيحي . . .

ولكن هذا « المفهوم » الذي أورده كلوت بك مورد التسليم في التعيين للزمن الذي وضعت فيه هذه القصة، لا يتفق وما تقرره الحقيقة التاريخية في شأنها. لأن رحلة بني هلال الثانية إلى أفريقية

كانت فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وهذه الرحلة هى التى قام عليها هذا القصص وأوحت إلى القصاص بما أفاضوا فيه من غرائب الوقائع والأخطار ، وإلى الشعراء بما تغنوا به من الأغانى والأشعار [1] ، واذكر بهذه المناسبة أن طالباً توجه إلى إحدى المجلات العلمية فى مصر بالسؤال عن العهد الذى وضعت فيه قصة أبى زيد الهلالى، فأجابت بأن هذه القصة كانت شائعة في القرن الثامن للهجرة أما الزمن الذى وضعت فيه فيظهر أنه بين أوائل القرن الخامس وأوائل الثامن ، فاعجب لهذا التعيين العلمى الذى تقدر فيه مسافة الحصر بثلاثة قرون كأنه حصر العلماء للزمن الذى وجدت فيه الدنيا وتم فيه ظهور الكواكب والأفلاك والسماء والأرض . . . .

حقاً إن القصة كانت شائعة لعهد ابن خلدون، وأنا أرى أنها فى ذلك العهد كانت قد استوفت تفاصيلها واستكملت أجزاءها ، وقد أشار ابن خلدون نفسه فيما ذكره عن هذه القصة إلى أن بطون بنى هلال كانوا يتناقلونها خلفاً عن سلف وجيلا بعد جيل، أى أنها درجت على الألسن حتى عهده آماداً طويلة وأجيالا

---

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية مادة « ابو زيد الهلالى »

متعاقبة . وعندى أن وضع هذه القصة إنما يرجع إلى حقيقتها الواقعية ووضعها من التاريخ . ذلك لأن الهلاليين وإخوانهم حين رحلوا إلى أفريقية إنما رحلوا لأمر يهم المصريين حكومة وشعباً ، وكان من الطبيعى أن يكونوا دائماً حريصين على تسقط أخبارهم وإذاعة انتصاراتهم ، يتحدثون بذلك فى أنديتهم ومجالسهم ويتناقلونه بالرواية والحكاية ويزيدون فيه بالتهويل والإغراق على ما يرضى رغباتهم ويشبع شهواتهم فى مثل ما نرى بيننا اليوم من التهويل بأخبار الحرب واختلاق القصص المثيرة عن وقائعها، بل لقد كان المجتمع المصرى فى ذلك الوقت أخصب فى هذه الناحية على ما قدمت لك ، ولم تكن ثمة مصادر رسمية يرجع إليها فى تعرف الأخبار كما هو قائم بيننا الآن من الرجوع إلى الصحف وشركات الأنباء وبلاغات الجهات المسئولة .

قصة من وضع العصور وخلق العبقرية المصرية :

نشأت إذن القصة الهلالية بمنشأ حقيقتها من التاريخ . ودرج بها خيال القصاص والمحدثين فى السمر والإفاضة على الوضع

الطبيعى . تطول بتطاول الأيام وتهول فى براعة القصاص بما يشبع لهفة السامعين ويشبع عواطفهم من تصوير للمثل الأعلى فى البطولة وأهوال المعارك العنيفة ومغامرات الحب البارعة وتسقط الحيل العجيبة . ولا شك أن بنى هلال وسليم كانوا طرفاً مشاركا فى نمو القصة والتهويل بحقيقتها التاريخية ، إذ كانوا يتحدثون بما لهم من الأخبار والوقائع فى مقام الفخر والاعتزاز وهو مقام يدعوهم إلى المبالغة ويقتضيهم الإغراق ؛ وكانوا يتناقلون ذلك جيلاً عن جيل ويخلعون عليه من التزيد ما يكون عادة فى تناقل الحديث ، والقصاص يروون هذا عنهم وفيه تزيدهم أيضاً ؛ وهكذا كانت القصة من تزيد الطرفين وتهويل الجانبين ، وهكذا كانت أيضاً إنعكاساً لأحاسيس أولئك وهؤلاء وتصورهم وانفعالهم بما يلائم الحياة التى يحيونها والوسط الذى يعيشون فيه . وإذن فليست القصة من وضع واضع بعينه أو شخص بمفرده ، ولكنها من وضع الأجيال وخلق العصور المتتابعة ، والظاهر أنها كانت فى بادئ الأمر حديثاً مشاعاً يتحدث بها الناس كما قلت فى أنديتهم ومجالسهم ، ثم استأثر بها القصاص بقوة براعتهم فى الخلق والتزيد واحتكرتها

طائفة خاصة للتكسب من الحديث بها على نحو ما هو باق إلى أيامنا الحاضرة .

على أن هذه القصة و إن كانت قد وضعت فى مصر واستوفت تفاصيلها من خلق العبقرية المصرية و براعة القصاص المصرى ، فإنها قد عبرت إلى الأقطار العربية الأخرى وشاعت عند طبقاتها و بخاصة فى شمال أفريقية . ذلك لأن تلك البلاد كانت مسرحاً للحقيقة التاريخية لهذه القصة ، وقد صارت صلة الهلاليين و إخوانهم بها أقوى وأشد ، كما كان التواصل بينها و بين مصر قوياً مكيناً ، و إن هذه القصة لتروى إلى اليوم فى تلك البلاد وفى غيرها وفيها الأثر المصرى واضح ملموس ، إذ تحكى بلغة يشيع فيها كثير من الألفاظ المصرية الدارجة والتعابير السائدة فى لغتنا العامية ، مما يدل على أنها وفدت عليهم من مصر بأصولها وتفاصيلها ، و إن القصاص هناك ليتحدثون بها فى المجتمعات كما يحدث « الشعراء » عندنا فى مقاهى القاهرة وعلى « مصاطب » القرى فى الريف ، لا يختلفون إلا أنهم فى مصر يختصون الليل بهذا الحديث بعد أن يفرغ السامعون من أعمالهم ، وهناك يقصرون الحديث على ساعتين قبل الغروب ثم يتفرقون قبل أن يهبط عليهم الظلام .

القصة والحقيقة التاريخية :

والقصة فى وضعها تتسق مع الوضع التاريخى وتجرى فى تسلسل حوادثها على غراره ، إلا أن وضعها بالرواية ونموها بالتناقل قد أثر فى تفاصيلها وحوادثها الفرعية بالاضطراب تأثيراً واضحاً ، فأنت لا تجد ثمة أصلا صحيحاً تتفق كل الروايات عليه فى ذكر الوقائع وتقف عنده فى الأسلوب ، لا فى الكتب المطبوعة ولا فى الأحاديث الشائعة ، وإنما هى رسوم إن اتفقت فى دلالتها فهى تختلف أشد الاختلاف فى روايتها وتفاصيلها ، كما هو الشأن فى كل قصص شعبى لا تحده أوضاع علمية ولكنه يجرى متموجاً ويفيض فى مثل عواطف الشعب وانفعالاته .

ملخص وقائع القصة :

ولو أننا أردنا أن نقدم للقارىء ملخصاً وافياً بما اشتملت عليه قصة بنى هلال وإخوانهم من أروع الوقائع وأبرع الحيل وغريب الحوادث وطريف النوادر — لفاض ذلك عن المقام المحدود ، ولزاد على الشرط فى هذا البحث الموجز . فحسبنا هنا أن نورد

من ذلك بما يكفى فى الإفادة لما نأخذ به من دراسة القصة وشرح مظاهرها الفنية وخصائصها القصصية . وقد أورد الدكتور فؤاد حسين موجزاً لهذه القصة فى مقال له بمجلة الثقافة . وعلى أنه موجز دقيق فإنه واف بالغرض . ولا بأس من أن نعتمد عليه فى ذلك . مع ما يقتضيه المقام من الحذف والإضافة ، قال الدكتور الباحث :

« نستطيع أن نقسم قصة بنى هلال إلى ثلاث حلقات : الحلقة الأولى وهى التى تروى تاريخ ظهورهم فى شبه الجزيرة العربية حتى استيطانهم بلاد « السرو » ، والحلقة الثانية وهى تحدثنا عن رحلتهم إلى بلاد نجد ، ثم الحلقة الثالثة ويطلق عليها تغريبة بنى هلال وتشتمل على حروبهم ووقائعهم فى بلاد العرب » .

الحلقة الأولى :

أما الحلقة الأولى فتبدأ بالحديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم ، فهى تقول : إن هلال بن عامر وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه قومه وأسدى إلى المسلمين معاونة قوية حتى أن النبى أسكنه وادى العباس . وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة

والكرم ، ورزق بولد سماه المنذر ، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده وحذق الفروسية والقيام بأعمال السلب والنهب ، ثم تعرف إلى الأمير « مهذب » وتزوج بإبنته «هذبا» ولما مضى على زواجهما عشر سنوات ولم ينجب منها قرر الزواج بثانية فرحل إلى بلاد « السرو وعبادة » حيث تزوج بإبنة الملك الصالح « عذبا » ، وهنا تأتى القصة بمفاجأة قصصية غريبة فتحدثنا بأن زوجه الأولى « هذبا » أنجبت له « جابراً » بعد ذلك العقم الطويل ، كما أن « عذبا » أنجبت «جبيراً» ، ولكن لم تلبث الغيرة أن دبت بين الاثنتين مما أدى إلى نزاع عنيف فى الأسرة انتهى بطلاق «عذبا» ورحيلها مع ابنها « جبير » إلى نجد . ومن ذرية «جابر» و«جبير» رجالات بنى هلال و بطونهم الذين يمثلون أدوار البطولة في القصة وتحكي عنهم حوادثها ووقائعها، فجابر ولد له عامر وتامر وهشام وحازم ومن نسل هؤلاء « رزق » والد أبى زيد وسرحان والد السلطان حسن . أما « جبير » فقد ولد له رياح وحنضل والنعمان . ومن ذرية رياح دياب بن غانم

ثم تنتقل القصة إلى الحديث عن « رزق » والد «أبو زيد» فتذكر أنه كان أميراً من أمراء العرب ، وأنه كان مزواجاً تزوج

من عشر نساء فلم ينجب من واحدة منهن إلا ولداً ليس له ذراعان ولا ساقان، فتزوج بامرأة تسمى « خضراء » فرزقت منه بفتاة تدعى « شيحا » ثم حملت بغلام هو « أبو زيد » . ولما كانت فى شهور الحمل خرجت للتنزه مع جارتها فرأت طيراً أسود اللون انقض على سرب من الطيور الأخرى . فقتل بعضها وشتت بعضها الآخر، فتضرعت «خضراء» إلى الله أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير فى قوته وشدة بأسه ولو جاء أسود اللون، فاستجاب الله دعوتها ــ وولدت الغلام على ما تضرعت به إلى الله — فلما كان اليوم السابع لميلاده ، أقام والده وليمة كبيرة دعا إليها أمراء العرب ثم قدم لهم الغلام فما كادوا يرون سواد لونه حتى هالهم الأمر ، وطلبوا من والده أن يطلق « خضراء » لأنها جاءت بولد لا يشبهه ، فلا بد أن تكون خانته فيه ، فطلقها على الرغم من حبه لها وتعلقه بولده . وانتهى الأمر برحيلها هى وابنها إلى الأمير الزحلان عدو بنى هلال . فقصت عليه قصتها فأكرم وفادتها وهدأ من روعها وتعهدها وولدها بالرعاية الكريمة، وعهد بتربية الغلام إلى مؤدب أولاده ، حتى إذا شب الغلام بدت عليه شمائل النجابة والفتوة وشدة البأس، وأولع بألعاب الفروسية

وركوب الخيل ، وابتدأ يحارب القبائل المعادية . فأظهر من ضروب البسالة ماطار بذكره ، ثم حدث أن هاجم الهلاليون بلاد الأمير الزحلان فنهض إليهم «بركات» وهجم على والده وأخذه أسيراً وهم بقتله لولا أن والدته أطلعته على حقيقة الأمر ، وكان هذا ابتداء التعارف بين الأب والابن . أما الأمير الزحلان فقد أعجب به وزوجه بابنته «غصن البان»، ومن يوم تلك الواقعة سمى «سلامه» إشارة إلى سلامة القوم على يديه وكنوه « بأبى زيد الهلالى » اعترافاً بزيادته على الفرسان فى الحرب . وبنسبه فى بنى هلال بعد أن تمت المعرفة بينه وبين والده .

وبعد أن تفرغ القصة من الحديث على حروب الهلاليين مع الأمير الزحلان وأخبار رزق وابنه « أبو زيد » تنتقل إلى الحديث عن سرحان والد السلطان « حسن »، فتذكر خبر تعرفه «بشما»، ثم ما كان من وقوعها فى أسر الإفرنج ونجاتها بحيلة لطيفة، ثم تنتهى الحلقة الأولى من القصة بكلام طويل عن حروب ووقائع الهلاليين فى اليمن والهند لا يتقيد فيه خيال القصاص بمراعاة التاريخ أو الدقة فى معرفة البلدان ، ولكنه خيال شارد لا يطلب إلا الغرائب والعجائب التى تستهوى العامة .

الحلقة الثانية :

وتأتى بعد ذلك الحلقة الثانية من القصة ، فتبدأ بالحديث عن رحلة الهلاليين من بلاد « السرو وعبادة » إلى نجد الخضراء حيث كانت تعيش قبيلة زغبة وذرية خيبر . أعنى قبيلة الأمير غانم وابنه دياب، وتقول القصة : إن هذه الرحلة كانت من جراء القحط الماحق الذى نزل ببلاد « السرو » مما اضطر القوم إلى البحث عن مكان ينتجعونه فقصدوا إلى نجد ليعيشوا مع أقاربهم ، وكانت رحلة عنيفة ، إذ اصطدم الهلاليون فى طريقهم بيهود خيبر ووقعت بينهم حروب طاحنة تمت بانتصار الهلاليين . على أن إقامتهم فى نجد لم تكن أهدأ ، إذ حارب الهلاليون العقيلى جابر والهدبى وغيرهما من الأمراء والأشداء والقبائل المجاورة مما تحدثت عنه القصة طويلا ووصفته أروع وصف وأبدعه ، وتذكر القصة أن السلطان حسن تزوج فى نجد « بنافلة » أخت دياب ابن غانم بعد أن وعده بأخته « نور بارق » التى تعرف بالجازية ولكنه لم يحقق معه هذا الوعد وزوجها لشريف مكة : و بعد أن تتحدث

القصة عن بطولة الهلاليين وحروبهم مع القبائل تشير إلى رحلتهم عن نجد ، وبهذا تنتهى الحلقة الثانية .

الحلقة الثالثة :

أما الحلقة الثالثة فهى التى تعرف بقصة الريادة أو تغريبة بنى هلال ، وهى أحفل حلقات القصة بالحروب والأهوال والغرائب والعجائب ، وهى مدار حديث القصاص غالباً فيما يتحدثون به إلى الناس فى المجالس العامة . ولا تحفل القصة فى ابتداء هذه الحلقة بما كان من نزول القوم أرض مصر . وقد يمر بعضها بذلك مروراً عابراً ، ثم تأخذ فى الحديث عما كان من رحلة الهلاليين إلى تونس الخضراء بسبب القحط الذى نزل بأرض نجد فأضر بالإبل والخيل وهدد النجوع بالجوع والهلاك ، ففكر القوم فى الرحلة إلى بلاد الغرب لما سمعوه عن خيراتها الكثيرة وزروعها النضرة ، وهنا تبدو القصة رائعة ممتعة ، فهى تذكر أن القوم لم يتهجموا فى القيام بهذه الرحلة ، ولكنهم فكروا فيها طويلا وأمعنوا فى التدبير لنجاحها وتحقيق الغرض منها ، فاتفق رأيهم فى ذلك على إرسال بعثة للتجسس وإرتياد الحال فى بلاد المغرب ومعرفة ما عند أهلها

من الاستعداد للدفاع عنها، وقد تألفت هذه البعثة من ثلاثة فتيان من خيرة أبناء الهلالية جاهاً وشباباً وجمالا وشجاعة ، وهم مرعى ويحى ويونس وعلى رأسهم أبو زيد الهلالى نفسه متنكراً فى زى عبد تابع لهم ، وخرج أبو زيد والفتيان الثلاثة لقصدهم بعد أن ودعهم العرب وعلى رأسهم السلطان حسن وداعاً حاراً يفيض بالعواطف الأبوية الصادقة . وسارت معهم (شيحا) أخت أبى زيد مسافة طويلة . وهى تبذل لهم النصح بالحيطة والحذر والصبر على ما يصادفهم من الصعاب والعقبات ، وتبكى بكاء مراً على فراقهم حتى نهرها أبو زيد وأمرها بالرجوع عنهم ، ثم تأخذ القصة فى الحديث عن سفر هذه البعثة وكيف وقع أعضاؤها جميعاً فى قبضة العدو، وكيف استطاع أبو زيد أن يخرج بالحيلة وأن يعود إلى الهلاليين وإخوانهم ويخبرهم بما كان من أمرهم . والظاهر أن قصة الزيادة هذه ترجع فى حقيقتها التاريخية إلى ما قدمناه فى خبر مؤنس بن يحى أمير رياح وموقفه من القوم حين أرادوا مهاجمة القيروان ، فبسط لهم البساط وحملهم على أن يدبروا لذلك ما عندهم من الحيلة وأن يتحيفوها أولا من الأطراف .

واستعد العرب للهجوم على الغرب ، وقد أعدوا لذلك الجيوش والحشود يتقدمهم أمراؤهم وفرسانهم ، وجاءوا «بالجازية» من مكة لتكون فى الطليعة مع فتيان العرب لبث الشجاعة فى نفوسهم وقلوبهم ، وتطيل القصة فى خبر إحضار الجازية واستخلاصها من زوجها شريف مكة بالحيلة ، وقد نقلنا هذا الخبر عن ابن خلدون فى الفصل الأول ، ولكن القصة تطيل فى شرحه وتفصيله تفصيلا وافياً ممتعاً بما فيه من الحيل الطريفة والأشعار الظريفة .

ثم تفيض القصة فى الحديث عن رحلة الهلاليين إلى بلاد الغرب ودخولهم إلى أفريقية ، وما جرى لهم من الحروب الدامية والوقائع العنيفة ولقائهم فى الطريق للخفاجى عامر والملك الغضبان وشبيب التميمى والبردويل بن راشد . وفى هذا تذكر القصة أسماء ملوك وقبائل من الصعب أن نردها إلى حقيقتها التاريخية وكثيراً ما يظهر فيها خلط القصاص وتصيدهم للأسماء والوقائع تصيداً يبدو فيه التلفيق وعدم الدقة؛ ثم تأخذ القصة فى رواية ماجرى من الحروب والوقائع بين الهلاليين و بين أبى سعدى الزناتى خليفة ، وأبو سعدة الزناتى هذا شخصية تاريخية كما مر بك . فقد كان قائداً ووزيراً لصاحب تلمسان، وقد حار به الهلاليون بعد ماتم لهم

فتح القيروان والتغلب على المعزّ بن باديس. ولكن القصة تضيف كل حروبهم فى أفريقية مع المعز وغير المعز إلى الزناتى هذا، وتصوره فارساً صنديداً و بطلا عنيداً من الصعب قهره والتغلب عليه حتى طالت الحروب بين الهلاليين و بينه أمداً بعيداً . وهنا تصور القصة أبا زيد الهلالى رجلا بارع الحيلة يحتال للتغلب على الزناتى بالدهاء والخيانة ، فوقف على خطة لقتله وضعتها سعدى ابنة الزناتى نفسه لشغفها بمرعى عندما كان أسيراً فى سجن أبيها . ولما كان المنجمون قد أخبروا بأن الزناتى لا يقتله إلا دياب بن غانم فقد استخدم أبو زيد ديابا لهذا الغرض، واستعان بالجازية وفتيات العرب الجميلات على إثارته و بث الحمية فى نفسه ، و برز دياب لمنازلة خصمه ولكنه وجد نفسه أمام خصم عنيد لا يقهر بسهولة ، ولا يمكن التغلب عليه نظراً لما كان يلبسه الزناتى من الزرد والمغافر التى تغطى جميع جسمه، فأشار عليه أبو زيد بأن يطعنه فى عينه وهو يلتفت إليه عند نهاية الشوط ، وهذه الرواية قد استغلتها القصة من الحقيقة التاريخية عن موقعة العين التى أوردنا حديثها فى الفصل الأول .

ولكن القصة تأتى هنا بعجيبة طريفة . فهى تذكر أن الزناتى

كان ابن جنية ، فإذا طعن فى جسمه التأمت جراحه مع صباح اليوم التالى وعاد لمنازلة خصمه كما كان من قبل ، و إذن لا بد من أن يحتال أبو زيد لهذا الأمر، فما أن علم بأن دياباً طعن الزناتى فى عينه حتى تنكر فى مظهر طبيب عربى وخرج ينادى فى الحى بمهنته . فطلبوه لإسعاف الزناتى من ألمه ، فوضع له السم فى عينه ، و بهذا ضمن موته ؛ وهنا تتحدث القصة عن نهاية الزناتى حديثاً مؤثراً يفيض بالأسى والألم، فهى تروى أن الزناتى علم بفعلة أبى زيد معه ، وأن الجازية قصدته فوجدته فى موته فارساً مهاباً حتى أنها تلثمت لما رأته وكانت لا تتوارى من رجل مهما كان قدره .

وبموت الزناتى خلا الجو للعرب ، وتم لهم الاستيلاء على تونس والتربع على تخوت الغرب السبعة ، ويعرف هذا القسم من القصة بقصة « السبع تخوت وسلطنة دياب وأبى زيد وتملك الأربع عشرة قلعة » ، ويقول محرر الفهرس العربى لدار الكتب المصرية : « إنها قصة عجيبة وسيرة غريبة وهى من أحسن سير بنى هلال شعراً ونثراً . وأعجبها مقالا وأشدها حروبا ونزالا » .

وبعد أن تأتى القصة على ما تم للهلاليين وإخوانهم من تملك البلاد وقوة السلطان ، تأخذ فى سرد ما وقع بينهم من المنازعات وتجدد الخلافات القديمة والعداوات الدفينة ، فكان أن قتل الحسن بن سرحان شبانة بن الأحيمر ، وسجن دياب بن غانم ثم تحولت الأحوال وقتل دياب الحسن ووقع القوم فى نزاع مستعر وحروب طويلة أدت إلى تفرق شملهم وذهاب ريحهم وتفرق أجيالهم فى الأقطار والأمصار، وهكذا تجرى القصة فى رواية القصاص وأحاديثهم . فبعد أن تشتعل جذوة من الحماسة وتشب ناراً من الخصومة . تفيض بسيل من الدماء ، وتتأجج فيها العداوات والثارات ، ثم تنتهى هادئة لينة يغمرها الاطمئنان والاستسلام فى نغمة حزينة أسيفة ، كأنها دولة طويت ، ودنيا انفضت ، وتكون الخاتمة لأحداثها الرهيبة وأهوالها العجيبة فى حديث الشعراء والمحدثين ، « وسبحان من من له الدوام، و يبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

الفصل الثالث

مظاهر البطولة كما تصورها القصة

أبطال القصة بين الحقيقة والخيال :

لعل أروع ما يأخذك فى القصة الهلالية هو ما فيها من تصوير بارع للبطولة، فهى مجالى حرب ونزال، وسير أبطال ورجال، وميدان صاخب تحتشد فيه ألوان من الصور والأشكال ، ولكنك على الرغم من هذا تجد لكل بطل فيها صورته الواضحة وشخصيته المتميزة ووضعه اللازم الدقيق .

فأبطال القصة على ما بينهم من شدة المخالطة والممازجة والمزاحمة يبدون فى وضع مسرحى كله حياة وكله حركة ، فكل بطل له دوره الخاص ومكانه المقدر حسب ما يقتضيه أداء الأدوار ومجرى الحوادث ، وللمرأة فى هذه المسرحية دور هام ومكان بارز كأنه جاء مكملا للحبكة الفنية فيها والعقدة المسرحية فى وضعها ، ولو أن هذه القصة جردت من بعض التلفيقات التى كان يسخو بها خيال القصاص فى التعليق على بعض الحوادث لجاءت

نسقاً منسجماً لاشذوذ فيه ولا مؤاخذة عليه .

ومن أبطال القصة من هم بأسمائهم ونعوتهم من اختراع القصاص وابتداعهم ، ومنهم من هم أشخاص تاريخيون أضفى عليهم القصاص من النعوت والصفات وأضافوا إليهم من الخوارق والمحالات ما يرغبون فيه ويميلون إليه ويرونه مما يروج فى الحديث عند العامة والجماهير . وقد ذكر ابن خلدون جملة من أبطال القصة البارزين الذين لهم وجود تاريخى[1] ، وما نريد فى هذا الفصل أن نروى لك سير هؤلاء الأبطال على ما تثبته الحقيقة التاريخية ، ولكننا نريد أن نعرض عليك صور بعض منهم كما تتجلى فى القصة لتكون نماذج أمام القارئ لما آثره القصاص فى تصوير البطولة فى القصة .

الحسن بن سرحان :

الحسن بن سرحان ، ويكنى أبو على ، ويلقب بأمير القبائل أو بملك العرب أو بملك الملوك ، وترجع شهرته الكبيرة عند العامة إلى الكرم أكثر مما ترجع إلى الحرب ، وهم يضربون

---

(١) راجع الفصل الأول

به المثل للرجل الكريم المضياف فيقولون : « عامل أبو على » .

والحسن أول من تذكر القصة من الأبطال وهى تقدمه دائماً فى كل موقف من المواقف وشأن من الشؤون . وإنما تحرص على تقديمه مراعاة لحكم الأوضاع التقليدية ، أو ما نسميه « نظام البروتوكول» فى التعبير الحديث، وعلى هذا نجدها تحيط شخصيته بهالة من الجلال والمهابة ، وتصور بطولته على ما تقضى به الارستقراطية الملوكية من الوقار والرزانة ، فهو جواد يعطى أضعاف ما يعطى سواه . أبى يحمى من يلوذ بحماه . شجاع يبادر فى الطليعة إلى النزال . مهذب لا يعرف إلا بحميد الخصال ، يقدر و يعفو ، و يغضب فيثأر . رأيه مسموع ، وكلمته نافذة . مسيطر فيما يتصل بشخصه و بمكانته ، ولكنه فى شؤون الرعية خاضع لرأى الجماعة ومشورتهم . يباحثهم فيما يجب من الأمر وما يصح من التدبير ، ثم يأمر بما يتفقون عليه . و يمكن أن تعتبر شخصية الحسن فى القصة أبعد الشخصيات عن التلفيق ، فلم تسبغ عليه ما أسبغت على الآخرين من الغرائب والمحالات والخوارق والخرافات ، ولكنها شخصية «ملوكية» مهذبة استمدت القصة صورتها مما كان معهوداً فى أوضاع الملوك والحكام يومذاك

على أمثل ما يجب وأحب ما يكون ، وإذا كان فى جوانب هذه الشخصية شىء من الخروج على المألوف فى الطبيعة الإنسانية ، فهو الإسراف فى الجود والتبذير فى العطاء وبذل المال فى سماحة إلى من يستحق ومن لا يستحق ، وهذه لا شك ناحية خلعها عليه «الشعراء» استجابة لأهوائهم وأغراضهم، وكثيراً مايشيرون إلى بذخه فى الترحيب «بالشعراء» الذين كانوا ينزلون عليه ، فيبالغ فى إكرام وفادتهم ، ويضاعف فى إخراج أعطيتهم ، وهى إشارة كما ترى لا يخفى الغرض فيها ولا المطلوب من ورائها ، إذ كانوا بذلك يستحثون كرم الباذلين لهم والعاطفين عليهم .

أبو زيد الهلالى :

ويأتى بعد الحسن أبو زيد الهلالى ، وهو أظهر بطل فى القصة بل هو بطلها ومدار الحديث فيها ، وبه تعرف وتوصف ، وقد مر بك أن أبا زيد هذا كان اسمه أولا « بركات » ثم سمى «سلامة» نظراً لسلامة بنى زحلان على يديه ، وبعد ذلك أخذ يعرف بأبى زيد الهلالى سلامة ، ويكنى بأبى مخيمر أكبر أبنائه وأشجعهم، ويوصف بالأسمر لأنه كان أسود اللون ، وهو وصف

يلذ للشعراء والمحدثين ترديده وتكراره .

وتصور القصة بطولة أبى زيد تصويراً خارقا ، وتلصق به من النعوت ما هو فوق الطبيعة البشرية ، ولا تقف فى هذا عند ناحية الشجاعة والفروسية ، بل تمتد به إلى كل ناحية من النواحى التى تتصل بحياة هذا البطل العظيم من يوم ولادته إلى يوم مماته ، فهى تحكى أن مولده كان تحقيقاً لدعوة مجابة تضرعت بها والدته إلى الله ، ثم تتحدث عن حياته فتذكر أنه شب على الفروسية والنجابة حتى استطاع أن يقهر أشجع الفرسان وهو شاب حدث، مما لفت الأنظار إلى مهارته و براعته، وجعل الناس يلهجون باسمه فى أحياء العرب، وأنت قد وقفت على الرواية فى نشأته مما أوردنا قبلا فى نسق القصة والتلخيص لمواقفها ، وقد عرفته فى هذه النشأة بطلا خارق البطولة ، فذ المواهب ، موفق الخطوات ، وهكذا عاش هذا البطل فى حياته الحربية والسياسية ، وفى قيادته للجيوش ، ونكايته بالاعداء ، ورعايته للقبائل والنجوع ، فهو فى الحرب شجاع مقدام يخف إلى كل معترك ، و يتصدى لكل هجمة، و يسرع إلى منازلة كل خصم عنيد ، و بطل صنديد، فلم يخذل فى موقف من المواقف ولم يغلب فى حرب من الحروب، وهو فى السياسة

داهية واسع التقدير والحيلة ، وتبالغ القصة فى تصوير بطولته فى هذه الناحية، فتروى أنه أعطى «جراب الحيلة» ، فما كان يعجز عن التدبير لأى ورطة مهما بلغت من الصعوبة والشدة ، ولا كان يفقد صوابه أمام تحرج المواقف واستحكام الأزمات ، ولأجل أن تسبغ القصة عليه هذه الصفة إسباغاً ملائماً أعطته كل المؤهلات اللازمة لها، فكان غاية فى العلم بالسحر والتنجيم والطب والحكمة، واسع الخبرة والدراية بطبائع الرجال والنساء ، عارفا بوسائل الدخول إلى النفوس ، بارعا فى استمالة القلوب ، ثم كان إلى جانب هذا كله رجلا متمسكا بإسلامه ، شديداً فى دينه ، له شخصية متسلطة فى الأمر والنهى وحزم الأمور ، ولهذا كان فى الواقع هو المدبر الحقيقى لشئون القوم والأمير عليهم ، وما كان الحسن بن سرحان إلا طوع يده ، ورهن إشارته وخلاصة ما تصفه به القصة أنه « صاحب المكر والكيد ، وفارس العرب والعجم ، والترك والديلم ... » .

دياب بن غانم :

أما دياب بن غانم فهو فى القصة ثالث الاثنين ، فتأتى شخصيته

فى البطولة من بعدهما ، وتبدو صفاته معقولة أقرب إلى الواقع من الخيال ، فهو فارس حرب ، و بطل معارك ، وترتفع بطولته فى هذه الناحية بمنازلته للزناتى خليفة وتغلبه عليه بعد أن أعجز كل شجاع و بطل ، حتى أبا زيد نفسه والحسن بن سرحان كذلك . ولكن القصة تقتصد معه وتقتر فى حقه ، فلا تدع له كل هذا الفضل ، بل تذكر أن أبازيد كان يعينه بحيلته ، ويسعده بتدبير الخطط فى الضرب والنزال ، حتى إنه لما طعن الزناتى الطعنة القاتلة كان أبو زيد فى الجهة الثانية يضع السم فى جرح الفارس الصريع ليؤكد القضاء عليه .

و إذا كانت القصة قد بالغت فى التهويل عن نشأة أبى زيد ، فإنها اقتصدت اقتصاداً واقعياً فى الحديث عن نشأة دياب ، بل أهملت نشأته كل الإهمال ، فلم تذكر عنه إلا أن والده كان فارساً وكان مزواجا ، ولكنه لم ينجب من زوجاته ، ثم تزوج بأم دياب وكانت غاية فى قبح الشكل ودمامة الخلقة ، لها ناب بارز قبيح حتى قضت طول حياتها منتقبة من أجل ذلك ، وقد رضى بها غانم زوجا طمعاً فى أن ينجب منها ، فلما كان له منها دياب صبر على معاشرتها أربعين عاماً اعتزازاً بالفارس الذى حفظ اسمه فى

قومه ، وارتفع بذكره فى القبائل ، وكان دياب كلما خالف والده فى أمر أمسك بيده ورفع النقاب عن وجه والدته وقال : لقد صبرت على الرضاء بهذا أربعين عاماً من أجلك ، فيذعن دياب لأمره ويسير على رأيه .

وتصور القصة ابن غانم بطلا شديد البأس ، طويل الصبر على النزال ، قوى الشكيمة على الخصم ، ولكنه فى شجاعته متهور ضيق العطن شديد الاعتداد بنفسه مغرور بشجاعته ، وقد ارتسمت صورته هذه فى أذهان العامة حتى ليضربون به المثل : فيقولون للرجل السريع الغضب الذى لا يصبر على احتمال الأمور «أنت زغبى» ، نسبة إلى زغبة قبيلة دياب ، ومن جراء هذا التهور كان دياب يتطاول على السلطان حسن بن سرحان وأبى زيد الهلالى ، وخاصة بعد أن صرع الزناتى خليفة ، حتى أخذ يتطلع إلى الملك والرئاسة على العرب ، فكان لا بد أن تقع الجفوة بينه وبين صاحبيه ، وكان لا بد أن يعملا على كبح جماحه وأن يأخذاه بالشدة ، فكانت نهايته إلى القيد الثقيل ، والسجن سبع سنوات كاملة ، ثم أطلقه السلطان حسن بعد أن تشفع له كثير من أمراء العرب وأعيانهم ، وقد أحقد هذا دياباً فكان أن اغتال الحسن على فراشه

كما قتل أبا زيد خيانة وهو يلعب معه . هكذا تروى القصة . ولكن الرواية التاريخية تقول : إن الذى قتل الحسن هم أولاد شبانة بن الأحيمر فى ثأر أبيهم كما مر بك .

الجازية أخت الحسن :

وفى القصة صورة من البطولة الفذة لامرأة، وهى الجازية أخت الحسن بن سرحان، وتكنى بأم محمد وهو ابنها الذى أنجبته من شكر أمير مكة على ما قدمنا من خبر ذلك فى الفصل الأول . وتبدو صورة الجازية هذه صورة رائعة حقاً ، وكأن القصة بما أضفت عليها من صفات البطولة قد أرادت أن تجعلها صورة مثالية للمرأة البطلة ، وكأن هذا المعنى هو الذى استهوى المستشرق الفرنسى « بل » فجعل شخصية الجازية عنواناً لكتابه الذى قصره على هذه الناحية من التاريخ .

كانت الجازية آية فى الجمال ، تصفها القصة بأنها كانت «جميلة المنظر لطيفة المحضر ، بديعة الجمال ، عديمة المثال » فى الحسن والكمال ، والقد والاعتدال ، وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها بين الخلق. لا فى الغرب ولا فى الشرق ، كأنها الشمس الضاحية،

طلعتها تنعش الصدور والأرواح ... !» ، وإلى جانب هذا كانت الجازية تتمتع بمكانة رفيعة من الجاه ، تزوجها أول الأمر شكر أمير مكة . فلما خرج الهلاليون من نجد أصروا على أخذها معهم واحتالوا على زوجها بأنهم فى رحلة للصيد فلما بعدوا بها عن الديار وعلم شكر غرضهم تألم لمفارقة زوجه ، ووجد بها وجداً شديداً ، وكلفت هى أيضاً به ، وحزنت على مفارقة ابنها منه، وتروى «لشكر» فى الجازية أشعار يقول ابن خلدون إنها تزرى بقصص المجنون مع ليلى ، فلما انتهى الهلاليون فى رحلتهم إلى برقة طلب منهم ماضى بن مقرب أميرها أن يصهر إليهم فى الجازية ، فرضوا بذلك حتى ينتفعوا بمعونة ابن مقرب ويضمنوا مشايعته لهم ، ولكن الجازية أبت وتمنعت وفاء منها لشكر ، حتى أدى ذلك إلى أزمة شديدة شغلت بال القوم ، وتطيل القصة فى تصوير هذه الناحية من حياة الجازية ، ثم تذكر أخيراً أن ماضى بن مقرب تلقى كتاباً من شكر يتنازل له فيه عن الجازية ، وبهذا حلت المشكلة ، وتم زواجها من ماضى، ولا تعنى القصة بالحديث عن حياة الجازية الزوجية بأكثر من ذلك .

أما حياتها الاجتماعية والسياسية فهى مجال الظهور والبطولة ، إذ تثبت لها القصة فى ذلك شخصية قوية لها مكانتها العالية وكلمتها النافذة ، فما كان العرب يفصلون فى أمر دون الرجوع إليها ، وتقول القصة إنها كانت تتمتع بربع المشورة فى شئون العرب وما يدبرون من الأمور ، ومعنى هذا أن المرأة كان لها من المكانة والاعتبار عند هؤلاء البدو أرحب مما يحسب لها فى أمثل النظم الديمقراطية فى العصر الحديث ، وإلى جانب منزلة الرأى كانت للجازية منزلة ظاهرة فى ميدان الحرب ، فكانت فى كل معركة على رأس سرب من الفتيات الجميلات يشجعن الفرسان بأناشيدهن ، ويحركن فى الأبطال وجدانات النخوة والشجاعة والدفاع عن الحريم وحماية الأعراض ، كما كانت متقدمة فى مواقف التدبير والحيلة ، تعرف كيف تدخل على نفوس الرجال من الناحية الضعيفة ، فهى التى تصبت دياب ابن غانم وأخذت تثير فيه كوامن الشجاعة لتحمله على منازلة الزناتى والأخذ بثأر العرب منه ، وهى التى عاونت أبا زيد الهلالى فى الحيلة للدخول من سور القيروان والوقوف على أسرار الدفاع داخل المدينة مما ساعد الهلاليون على تحطيم ذلك

السور الضخم، والاستيلاء على القيروان بعد الحصار الطويل على ما قدمنا فى الفصل الأول .

فبطولة الجازية كما تصورها القصة بطولة فذة ، وإنها بمميزاتها الباهرة وصفاتها الرائعة ، لخليقة بأن تأخذ مكانتها بين بطلات التاريخ ، على وضع إن لم يصح كله من ناحية الحقيقة التاريخية فهو صورة مثالية خليقة بالتقدير والإعجاب .

الزناتى خليفة :

ويعتبر الزناتى الطرف الثانى فى القصة، فهو العدو الذى وقف فى وجه بنى هلال وصمد لنزالهم ، وأذاقهم كثيراً من الأهوال والشدائد ، وكل ما تذكره الرواية التاريخية عن الزناتى هذا أنه كان وزيراً لصاحب تلمسان ، وأنه حارب الهلاليين فتغلبوا عليه وقتلوه فى موقعة الزاب ، ولكن القصة تضعه فى صورة رائعة من البطولة ، وتحمل عليه تاريخ النضال الطويل الرهيب الذى واجهه بنو هلال وإخوانهم فى أقطار أفريقية وبلاد الأندلس، وتقف به فى مقابلة الهلاليين قوة هائلة اقتضى إخضاعها كثيراً من الجهود والتضحيات ، وكأن القصة قد أرادت بهذه المبالغات التى

نسجتها من حوله أن تمجد بطولة الهلاليين فى تغلبهم عليه ، وأن تشيد بقوتهم وشجاعتهم إذ قهروا عدواً ليس من السهولة أن يقهر.

أول ما تحكيه القصة عن الزناتى أنه كان ابن « جنية » ، فكان إذا طعن بالسيف وأريق على جرحة قليلا من « ماء الحياة » التأم لساعته مهما كان مبلغه من الخطورة ، ولهذا السبب لم يستطع فارس من الفرسان أن ينال منه منالا ، ولهذا السبب أيضاً حير أمره الهلاليين حتى ضجروا من شدة حربه ووقوفه أمامهم ، ولم يقدروا على قتله إلا بالحيلة ، إذ طعنه دياب فى عينه ووضع له أبو زيد السم فى الجرح فسرى فى جميع جسمه كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وتصف القصة الزناتى فى بطولته بأنه كان فارساً شجاعاً واسع الدراية بأساليب الحرب والحيلة فيها ، صعب المراس ، له حربة رهيفة ، تقد الصخر المتين ، فدانت الدنيا لسيفه، وأذعن الشجعان لبطشه ، ولما اقتحم بنو هلال بلاده نفر اليهم فى جيوشه ، وثبت لنزالهم ، وصبر على حربهم فى عناد وإصرار حتى أفنى كثيراً من شجعانهم، وقد كان لشدة غيظه منهم يلجأ إلى أعنف أساليب القوة والرهبة ، فكان إذا ما قتل فارساً من بنى هلال اجتز

رأسه وعلقه على سور القيروان إرهاباً لهم وتشنيعاً عليهم ، وكأنه بهذا الصنيع الشنيع يحارب أعصابهم و يقصد إلى تحطيم الروح المعنوية فيهم مما يعتبر أساس النصر فى أساليب الحرب الحديثة .

وكان الزناتى يعرف أن مصرعه لا يكون إلا بيد دياب بن غانم كما أنبأه بذلك المنجمون وأهل السحر والعرافة . وكان الهلاليون يعرفون ذلك أيضاً ، فلما ضاقت بهم الحيلة وضجروا من عناد الزناتى وشدة مراسه ، أرسلوا إلى دياب وهو فى مؤخرة النجوع يثيرون نخوته بما قتل الزناتى من قومه ، فركب دياب إليه وناداه إلى النزال ، فلما علم الزناتى بذلك أيقن باقتراب مصرعه . ولكنه نزل لحرب دياب فى صبر وثبات و براعة تطيل القصة فى شرح مواقفها وتحكى بالتفصيل دقائق وقائعها ، وقد طالت الحرب بينهما حتى ضجر من طولها الزناتى كما ضجر دياب ، وأخيراً استطاع دياب أن يصرع خصمه بخيانة سعدى بنت الزناتى لأبيها، و بموت الزناتى انتهت دولته لأنه كان البطل الوحيد فى قومه ، ولم يثبتوا من بعده لحرب الهلاليين إلا قليلا ثم أذعنوا لطاعتهم .

سعدى بنت الزناتى :

ولسعدى هذه موقف هام فى القصة وصورة أخاذة بما يشيع حولها من السمات والصفات والأقاويل والإشاعات ، وبما يفيض القصاص عليها من العواطف المتأججة والغرائز المتلهفة والآمال المكبوتة . أما الرواية التاريخية فلا تعرض لها بشىء إلا ماتذكر من أن والدها الزناتى كان يلقب بأبى سعدى ، ومن الجائز عند العرب أن يلقب الرجل بابنته وأمه كما يلقب بابنه وأبيه ، فلعل هذا كان من الجائز أيضاً عند البربر .

وهنالك رواية فى نسب قبائل السعادى التى تنتشر فى برقة وبعض جهات مصر تقول إن هؤلاء العرب من سلالة امرأة تسمى سعدى من زناته ، وهى بنت عظيم من عظمائهم أخذت فى حرب ابن باديس. وتزوج بها زعيم بنى سليم إذ ذاك ، وكان رجلا عظيما يسمى بالذئب ويلقب بأبى الليل ، ويقسم أولاد سعدى إلى ثلاث قبائل : ـ البراغيث ـ والعقاقرة ـ ومواطنهم فى برقة ـ والسلالمة أو بنى سلام وهم أيضا ثلاث قبائل : المنادى ـ وبنو عونه ـ والجبالية ـ وجميعهم يسكنون بنواحى مصر ، إذ وفدوا عليها من

طرابلس فى أواخر القرن الثانى عشر للهجرة .

فهناك إذاً أصل تاريخى تقوم عليه قصة هذه البطلة ، وقد استغل القصاص هـذا الأصل استغلالا كبيراً وانتقلوا بزمانه ومكانه والوضع الحقيقى فيه إلى الوضع الذى أرادوه فى ترتيب حوادث القصةوالتشويق بغرائبها وطرائفها .حتى ليمكن أن نقول إن كل ما تذكره القصة الهلالية عن سعدى بنت الزناتى وماترويه عنها ليس إلا من إختراع القصاص وابتداع خيالهم ، وإنه لخيال خصب موفق فى رسم الصورة التى اختارها لهذه المرأة ، بل فى رسم الصورة المثالية لكل امرأة تواجه الحياة بغرائزها وتفرض ميولها وهواها على كل شىء فى الوجود وتضعه فوق كل شأن من شؤون الحياة والناس ،مهما كان شأن الحياة التى تواجهها وشأن الناس الذين يعترضون طريقها .

فقصة سعدى كما يرويها القصاص ، هى فى الواقع قصة كل امرأة ، ومثيلاتها كثيرات فى التاريخ وفى الحياة الواقعية ، ولن نستطيع أن نقابل بين وضع سعدى ووضع الجازية فى القصة إلا فى الامتياز بالجمال والجاه ورفعة المكانة، ثم تختلف الصورتان بعد ذلك كل الاختلاف: فالجازية كما مر بك كانت امرأة لها

رأى راجح ومشورة نافعة وكانت تشارك فى شئون الحرب والسياسة والتدبير للملك وتحمل من ذلك عبئاً ثقيلا مثل مايحمل الرجال، ثم كانت دائما فى موقف الغيرة على قومها ونصرتهم، حتى لقد ضحت بحبها لزوجها الأول فى سبيل معونتهم والرحيل معهم إلى الغرب ، وعلى العكس من هذا كله كانت سعدى .

أجل ! فقدكانت سعدى على ما تروى القصة وحيدة أبيها وهو سيد قومه ، فكانت فى مقام رفيع من الجاه والمكانة . لا يرى أحد الكفاءة فى نفسه لطلب يدها من أبيها، ولا ترى هى أن تتنزل فى قبول أحد أدنى من مكانتها ؛ فلما وقع أبو زيد وفتيان الهلالية الثلاثة — يحيى ومرعى ويونس — فى سجن الزناتى ، وساقهم إلى المشنقة بتهمة التجسس كما مر بك فى قصة الريادة أطلت سعدى للتفرج ، فوقع نظرها على مرعى ، فأخذت بجماله وعلق قلبها بحبه فأسرعت إلى أبيها بالشفاعة فى هؤلاء الغرباء الذين لاحول لهم ، والذين قد يكونون أبرياء مما نسب إليهم، ورأت أن يسجنوا سجناً مؤبداً بدلا من إعدامهم ، فأصاخ والدها لرأيها وحقق لها رجاءها نظراً لإيثاره لها ، وبالغ شفقته عليها .

وأخذت سعدى تردد على مرعى فى السجن كل ليلة فى خفية

عن أبيها وقومها ، فتكشف لمرعى عن غرامها به وحبها له وأملها فيه ؛ ويكشف لها هو الآخر عما فى قلبه لها من الغرام والحب والأمل ، ولكنه مع ذلك مشغول بالمهمة التى تتطوع من أجلها ، حريص على الوفاء لشرف أهله وقومه، ثم هو عفيف النفس طاهر الذيل فلا يستغل شرف الفتاة فى إشباع غرائزه ، ولا يندفع للاستجابة لميولها ورغباتها ، وإنما يعدها حياة الزوجية المكرمة ويمنيها بأنه لو خرج من سجنه وأخبر قومه بهذا الحب فسيحضرون لخطبتها له وتتم لهم الأفراح والليالى الملاح ، ولكن الفتاة كانت تخشى أن يخرج من السجن فيرجع إلى قومه وينساها وهى لا تقدر على فراقه ولا تصبر على بعده . على أنها ماذا تقول لوالدها فى هذا الأمر ، وماذا تحاول وهى تعلم حق العلم أنهم جواسيس وأن ملك والدها مهدد إذا أفلتوا من إساره . . وأخيراً تغلب الحب على كل معنى آخر وفتق بالحيلة للفتاة ، فاحتالت عند أبيها لخروج أبى زيد لأنه عبد لا قيمة له ولا خطر ، واغتبط مرعى لهذا الصنيع لأنه يعلم ما وراءه من الخير ، ويعلم أن أبا زيد سيعود ببنى هلال وإخوانهم ، فيغلب الزناتى على أمره ويخرج الفتيان الثلاثة من سجنه .

وجرت الأمور على ماقدر مرعى، فلم تمض إلا فترة من الزمان حتى رجع أبو زيد ومن ورائه جموع بنى هلال وسليم وإخوانهم لحرب الزناتى، وكانت سعدى على حالها من الهيام بحب مرعى والنزول لملاقاته كل ليلة خفية، وكان هو فى حال من القلق والاضطراب والتطلع إلى ما تجرى به الأقدار من تطور الحوادث مع قومه ونصرهم المنوط به خروجه من سجنه وكان على سلوكه مع الفتاة يعدها ويمنيها ويذكرها دائما بأنه رجل شريف ومن نسل عربى عريق لا يعرف الخنا ولا يرضى الفجور فى الحب، فلما وصلت طلائع الهلاليين والتحمت جيوشهم بجيوش الزناتى، حسبت الفتاة أن أملها أوشك أن يتحقق، وقدر مرعى أنه صار قريبا من أمله، ولكن الحرب طالت بين الفريقين أكثر مما يجب، ووقف الزناتى عنيداً فى وجه الغزاة الفاتحين، وضجرت الفتاة والفتى من طول الانتظار أكثر مما ضجر المحاربون من قسوة النزال، وكان ضجر الفتاة أكثر، وكان الحب يستبد بعواطفها ويسلبها إرادتها حتى حملها، على ركوب المركب الخشن، فاتصلت بالهلاليين، ودلتهم على مواقع الضعف فى والدها وفضحت لهم أسراره الحربية، وأنبأتهم بأن مصرعه لا يكون إلا على يد

دياب ابن غانم كما أخبره بذلك العرافون، فكان هذا مما ساعد الهلاليين على إدراك غرضهم من الزناتى وظفرهم به و بملكه .

ترى هل تكون عواطف الحب عند المرأة أقوى من عواطف البنوة ؟ وهل يكون الوفاء للحبيب أقوى من الوفاء للوالد ؟ وهل يهم المرأة الظفر فى الحب أكثر مما يهمها الظفر فى الحرب؟ كل هذا تجيب عنه القصة بالإيجاب فى تصرف سعدى ، وكل هذا يتجلى واضحاً فى قصة تلك المرأة التى سحقت عرش والدها فى سبيل الاحتفاظ بقلبها و إشباع عواطفها ، أو إن شئت التحقيق فقل غرائزها ، ومثيلات سعدى كما قلت لك كثيرات ، وقد نجد هذه الشخصية فى الرجال و إن كان وجودها يكثر فى النساء .

ثم ماذا ؟ ثم كان غدر القضاء بالفتاة أقسى من غدرها بوالدها، فقد خرج مرعى من السجن ، وانتظرت منه الفتاه الوفاء فلم يفعل، فخرجت إلى دياب الذى قتل أبيها وقصت عليه قصتها وبكت بين يديه لعله يرق لحالها ، فاحتجزها فى بيته ثم طلبها لنفسه فنفرت من هذا الطلب وواجهته فى غلظة ، وتهور معها دياب وأراد أن يذل نفسها حتى تذعن له، فألبسها الخيش وقدم لها الطعام الخشن، وقضى عليها بأن تطحن الملح وأمر عبيده بالقسوة فى معاملتها وكلما

أصرت الفتاة على رفض طلبه أمعن فى القسوة عليها ، ولجأت الفتاة إلى السلطان حسن ، وشكت إليه ماقاسته من عنت دياب ، فرق لحالها وأمر بأن تعيش فى بيته عيشة مكرمة ، بل لقد أخذ فى حساب دياب حساباً عسيراً على فعلته ، وكان هذا من الأسباب التى حملته على سجنه ، وأخيراً تمت فصول الرواية العنيفة القاسية بأن زفت سعدى إلى مرعى .

فليس من شك فى أن خيال القصاص كان خيالا خصباً موفقاً فى خلق هذه الصورة القصصية ، وحبك مواقفها حبكا دقيقاً تضطرم فيه العواطف ، وتوزع فيه الميول والرغبات ، وقد استهوت قصة سعدى ومرعى العامة كثيراً وراج حديثها بينهم وجعلوه قصة قائمة بنفسها ، ومن منا ينسى ما شاهد وما سمع فى (صندوق الدنيا) عن هذين العاشقين ؟

•

البطولة كما تصورها القصة

البطولة فى القصة والبطولة عند العرب :

تلك صورة موجزة لبعض الأبطال المشهورين فى القصة ، اخترناهم من الأشخاص الذين أثبت التاريخ وجودهم ، وألمع العلامة

ابن خلدون فى تاريخه إلى حقيقتهم ، وقد أردنا بذلك أن نضع بين يدى القارئ أمثلة لما تؤثر القصة من الصفات والشمائل فى تصوير البطولة وتمييز شخصية البطل ، والواقع أن القصاص قد جعلوا الأصل فى هذه الناحية ما كان شائعاً عند العرب ، وهذا شيء طبيعى ، فان القصة قصة عربية و بيئتها عربية وأشخاصها من العرب .

فالعرب كانوا يشترطون فى البطل الشجاعة والقوة والشهامة والمروءة وهبة الشعر والفصاحة والتقوى ورقة الخلال ، والمهارة فى ركوب الخيل والبراعة فى أعمال السيف والرمح وإكرام الضيف. إلى غير ذلك مما يتجلى فى صور أبطالهم التاريخيين مثل عنترة وعمرو بن معديكرب وحمزة وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد ، وهذه كلها كما رأيت صفات عامة تخلعها القصة على جميع أبطالها ، فان فارقت بينهم فى شيء من ذلك فهى مفارقة من جهة الضعف والقوة لا من جهة انعدام صفة من تلك الصفات .

بل إنك لو نظرت إلى صور الأبطال فى هذه القصة و إلى صور البطولة فى قصة عنترة وقصة المهلهل بن أبى ربيعة وقصة سيف بن ذى يزن وقصة الظاهر بيبرس وغيرها من القصص

التاريخية التى لعب بحقائقها خيال القصاص، لرأيت الصورة واحدة ولرأيت هؤلاء الأبطال جميعاً يلبسون لباساً متفقاً فى السمات، والصفات، حتى كأنهم فرسان جيش واحد وليس الخلاف إلا فى سيرة الجهاد ومواقع الحروب والغارات .

البطولة فى القصة والبطولة عند اليونان :

وفى أبطال القصة أيضاً مشابه كثيرة من صور الأبطال عند اليونان ، وكثير من تاريخ هؤلاء وسيرهم يشبه تاريخ أولئك ، فالبطل عند اليونان كان نصف إله فى وسعه أن يفعل الخير والشر كما يشاء ، وهو قادر على أن يصنع بنفسه و بغيره ما يريد من الضر والنفع ، وليست أعماله إلا خوارق ومحالات ، وهذا يشبه إلى حد كبير ما ترويه القصة الهلالية من خوارق أبى زيد فى أعمال الحيلة والسحر والتنجيم والإخبار بالغيب والإفلات من كل نازلة ، بما لا يتصور ولا يتحقق إلا بقدرة قادر ، ثم هو يشبه إلى حد كبير ما تذكره القصة عن الزناتى من أنه كان ابن جنية فكان إذا طعن بالسيف ووضع ماء الحياة على الجرح التأم وعاد فى اليوم التالى صحيح البدن سليم الجسم ،

ثم ما تتحدث به فى غير موضع من أن الفارس كان يضرب سيفه فيقضى على مائة ، وينزل إلى الميدان فيتغلب على ألف .

حتى فى الناحية التاريخية والأسطورية لوجود الأبطال ووضعهم القصصى يلاحظ المتأمل مقاربة عجيبة ، فقد قلت لك من قبل إن أبطال القصة الهلالية منهم أشخاص تاريخيون لهم وجود حقيقى، ومنهم أشخاص لا يعرف عنهم التاريخ إلا أسماءهم، ومنهم أبطال اخترعهم القصاص اختراعاً وابتدعوا كل شيء عنهم ، وكذلك الشأن فى أبطال اليونان ، فمنهم طائفة اشتهرت فى الأساطير وعدت من الأعيان مثل أخيل وأوليس وأغا ممنون ، ومنهم من لا حقيقة له قط مثل هيراقليس وأوديب ، و بعضهم أسماء لا مسميات لها مثل هيلين ودوروس ، وآخرون يذكرهم التاريخ و ينسب إليهم أعمالا مثل ليبونيداس وميزاندر. وإن نظرة فى المقارنة بين مواقع القصة الهلالية وما يروى من المواقع عن حروب طروادة لتدل الباحث على مشابهة كبيرة ومظاهر متفقة، و إن قصة حصار الهلاليين للقيروان التى روينا لك تفاصيلها من قبل لتشبه قصة حصار أغاممنون لمدينة طروادة ، فكل منهما دام مدة طويلة من الزمان وجرت فيه حروب ووقائع رهيبة مفزعة ،

ثم انتهى كل منهما بالحيلة وتم الكسب فيهما بالدس والوقيعة .

فهذه كلها مشابهات ـ وغيرها كثير ـ يلاحظها الباحث إذا ما قارن بين القصتين وقابل بين الأبطال هنا وهناك ، بل إنه فى هذا الصدد ليقف على مشابهات أخرى بين سير الأبطال فى القصة الهلالية و بين مثيلاتها فى أساطير الفرس وخرافاتهم التى تحكيها الشاهنامه وغير الشاهنامة، وكذلك يستطيع أن يجد مثل هذا ولو إلى حد ما فيما يروى من القصص المصرى القديم .

فهل يصح أن يكفى هذا عند الباحث لأن يحكم حكما قاطعاً بأن القصاص قد تأثروا بقصص اليونان ووقائع أبطالهم وما يحكى من أساطير الفرس وأعاجيبهم فى رواية القصة الهلالية وحبك فصولها ووقائعها وما أضافوه من الخوارق والمحالات إلى أبطالها ورجالها ؟

أما إن القصاص قد تأثروا بالعرب فى ذلك فهذا ما لاشك فيه، بل إنه الأصل الذى كان ماثلا بين أيديهم فبنوا عليه وتوسعوا فيه، ولكن ذلك الأصل بقى ملحوظاً فى كل نواحى القصة وبخاصة فيما تتحدث به عن بطولة الأبطال .

وأما إنهم تأثروا بما عرف من قصص اليونان والفرس فإن

الباحث يجد نفسه بأزاء حقيقتين لا يستطيع إنكارهما :

الأولى أن العرب قد عرفوا اليونان وتأثروا بفلسفتهم وأدبهم وما خلفوا من ضروب الثقافة العلمية والأدبية كما أن المصريين قد عرفوهم قبل أن يعرفهم العرب بدهر طويل ، إذ كانت الصلة بين المصريين واليونانيين فى القديم صلة وثيقة شاملة فى شتى النواحى السياسية والإجتماعية والثقافية .

والثانية هى أن كثيراً من القصاص فى مصر قد وفدوا عليها من العراق وخاصة بعد سقوط بغداد ، وقد كان العراق على صلة وطيدة بمعارف الفرس وأدبهم وأساطيرهم، وقد نقل كثير من هذه الأساطير فى العراق إلى اللغة العربية وذاعت فى ألسن المحدثين والقصاص ، فلا شك أن الذين وفدوا منهم على مصر قد استغلوا ما عندهم من ذلك للتجارة والكسب فى مجالس الخاصة والعامة والإغراب على الناس فيما يزجون إليهم من قصص شهى وحديث طريف .

هاتان حقيقتان بارزتان لا يستطيع أن ينكرهما الباحث ولا أن يغفل عنهما وهو بسبيل المقارنة بين ذلك القصص ، ولكن على الرغم من هذا لا نستطيع أن نجزم للقارئ جزماً علمياً بأن

القصاص الذين رووا قصص الهلاليين قد استلهموا القصص اليوناني أو الفارسي ، ولا يمكن أن نضع أيدينا في ذلك على حقيقة علمية تؤدي إليها أساليب البحث الحديث ، لأن المشابهة لا تبدو إلا في أمور عامة ووقائع شائعة تفطن إليها الأمم بفطرتها وتهتدي إليها بغرائزها وميولها، فقد كانت الغاية في البطولة عند الأمم القديمة لا تعدو تمجيد القوة وتقدير الحب والغرام بالجمال، وكانت الأداة في ذلك هي السيف والمهارة والحيلة، وكان الميدان لذلك هو ميدان النزال والصراع والتغلب على ما يملك الغير من القوة وما يقيم من الحواجز ، وكان البطل كل البطل هو الذي يضع يده على الرؤوس ويملك الأمر والنهي ويفوز بأجمل الجميلات في قومه أو فيما يجاوره من الأمم والقبائل، وإذا ما لحظنا أن هذا هو الوضع العام والغاية المطلوبة عند الأمم القديمة في نظرتها إلى البطولة ، أدركنا أن ما وراء ذلك من التفاصيل ليس إلا ما يقتضيه الاتجاه الطبيعي ويوحي به الأصل المنشود .

فالتشابه في الأمور العامة ليس مظنة الأخذ والاقتباس ، وليس للباحث أن يقيم عليه قاعدة للحكم ، وخاصة إذا ما تقاربت الدوافع والبواعث واتفق الغرض والغاية، وهذا يكون في القصص

ويكون فى الشعر ويكون فى كثير من الاتجاهات الفكرية والعاطفية .

والاتفاق فى تلفيق المحالات والصاق الخوارق بالأبطال هو أيضاً من التشابه فى إدراك الأمور العامة عند القدماء — لأنهم كانوا يفسرون مظاهر القوة بالغرابة وينظرون إليها على أنها شىء ليس فى متناول العقل ، ولا من جنس الأمور المألوفة ، وعلى هذا تصور اليونان المحال فى أبطالهم ، وألصق القصاص المصريون الخوارق والغرائب بأشخاص قصصهم ، واعتقد العرب أن كل شىء عظيم من صنع الجن وعملهم

مقارنة بين البطولتين:

بقيت كلمة لا بد منها فى المقارنة بين البطولة فى قصص يونان والبطولة فى القصة الهلالية ، وإن الباحث ليلمس فى مجال هذه المقارنة فرقاً واضحاً بين البطولتين ؛ فقد كان البطل عند اليونان كما قلت لك نصف إله ، فليس من طبيعة الناس ولا من جبلتهم ، وإنه ليبدو فوق إدراكهم بخصائصه ومميزاته ، وأفعاله ومحاولاته . أما البطل فى القصة الهلالية فانسان معقول ، يجوز

عليه ما يجوز على كل إنسان ، وكل أعماله مما يدخل فى الطاقة البشرية على وضع من المبالغة والتهويل ، ومن ثم نستطيع أن نقول إن البطل فى القصة الهلاليه أقرب إلى الحقيقة الواقعية وأشد صلة بحياة الناس . وعندى أن هذا الفرق يرجع إلى التفاوت بين العقليتين ، ولكنه يرجع أكثر إلى التفاوت بين الزمنين ، فاليونان قدصوروا ابطالهم وهم يصورون معبوداتهم ، أى فى الفترة التى كانوا لا يزالون فيها يفتشون عن آلهة ومعبودات ويبحثون عن نماذج ومثل عليالا للانسانية ، بل للألوهية التى التى توحى بها فكرتهم فى العبادة ، فكان أن وضعوا أبطالهم فى مرتبة قريبة من آلهتهم استجابة وخضوعاً لسيطرة تلك الفكرة على أذهانهم وخيالاتهم .

أما قصاص القصة الهلالية فقد كانوا فى زمن خلصوا فيه من سيطرة تلك الفكرة ، واتجهوا بالعبادة لله سبحانه وتعالى كما يقرره الدين ويفرضه الإسلام ، وإنما كانت فكرة الإعجاب والتمجيد هى التى تسيطر على أذهانهم وخيالاتهم فى ذلك الوقت ، وعلى هذا صوروا أبطال القصة فى صورة من المثل الأعلى الذى يستهوى الناس بالإعجاب والتمجيد لا بالتأليه والتقديس .

والإعجاب يتفاوت فى مراميه إلى حد كبير ، أما التقديس فيكون التفاوت فيه إلى حد ما ، ولهذا تجد الأبطال فى القصة الهلالية يتفاوتون فى مراتب الاعجاب ، فمرتبة الحسن بن سرحان فى ذلك غير مرتبة أبى زيد ، ومرتبة أبى زيد غير مرتبة دياب ، ومرتبة دياب غير مرتبة الزناتى ، ومراتب هؤلاء كلهم غير مراتب الأبطال الآخرين الذين تذكرهم القصة مثل ماضى بن مقرب والقاضى بدير وزيدان ومخيمر ومطاوع والعلام وأبى خريبة وسواهم ، أما مراتب الأبطال فى قصص اليونان فتبدو متقاربة فى المكانة وإن اختلفت فى المنازع والاتجاهات .

هذا ما يلمسه الباحث من الفرق بين تصوير البطولة فى القصص اليونانى والقصة الهلالية وهو الفرق المهم الأصيل ، فكل ما يأتى بعده من الفروق فهى فروع عنه تستطيع أن ترجعها جميعاً إليه .

الفصل الرابع

تأثير القصة فى المجتمع المصرى وتأثرها به

شاعر الربابة الذى سيطر على المجتمع المصرى !

ظلت قصة بنى هلال — أو قصة أبى زيد الهلالى كما هو شائع فى التعبير — حديث المجتمع المصرى ثمانية قرون ، وظل شاعر الربابة يحدث بها الناس من العهد الفاطمى إلى اليوم ، فكان أنس المجالس ، وبهجة المحافل ، ومجلى السرور والبشاشة. ذلك عهد أدرك الكثيرون منا مجاليه الساحرة ، ولياليه الساهرة ، ومجالسه العامرة على مصاطب القرى فى الريف ، وفى مقاهى المدن والقاهرة ، ولا تزال إلى اليوم تتراءى منه رسوم محيلة فى زوايا الأحياء الوطنية العريقة ، إذ يقف المار بها ليلا على مقهى صغير شاحب يقوم فى حارة أو منعطف كأنه يمعن فى التخفى من مظاهر المدنية الحديثة ، وقد جلس فيه المحدث أو الشاعر للرواية والقصص ، ومن حوله جماعة من أعيان الحى المقيمين

والتجار المحليين والشيوخ المتقاعدين يلتمسون الحكمة والقدوة في سير الأبطال وأحاديث السابقين ، وكأنهم بالإصرار على تلك التقاليد الموروثة يكافحون بها في معركة البقاء للاصلح فالناس ينظرون اليهم في استخفاف ، ويعتبرونهم طرازاً قديماً متخلفاً عن روح العصر ومباهجه الممتعة التي تؤديها الآن الإذاعة أو الخيالة أو يقوم بها الأشخاص على المسرح ، وهم كذلك ينظرون إلى هؤلاء الناس في استخاف ويرمونهم بالجهل لمورد الحكمة ومبعث البطولة ومجال الحجا والرزانة ، والجرى وراء العبث التافه والتمويه الكاذب والشرور التي جلبتها المدنية لإفساد النفوس وتلف العواطف .

هذا «الشاعر» الذي يبدو اليوم شبحاً ماثلا ، ولوناً حائلا ، وصوتاً خافتاً يتلاشى في ضجيج العصر ، إنما هو صورة ممتدة لصاحبه الذي ظل قروناً طويلة يسيطر على عواطف المجتمع المصري ، ويستهوي قلوب الناس بما يلقي عليهم من أفانين شعره وعجائب سحره ، يجمعهم ويفرقهم ويهتاج من نفوسهم نوازع القوة والفتوة ، ويملأ أسماعهم بمفاخر الأبطال ومآثر الأجواد ، ثم يعود من مبذول عطائهم ونفحات جودهم بصفة الرابح وغنيمة الظافر .

ورث هذا « الشاعر » مكانة القاص الذى كان يعظ بقصص الدين وأساطير الأولين ، ويذكر الناس بأنباء آبائهم ومواقع تاريخهم ، وقد أخذ صوت ذلك القاص يتضاءل شيئاً فشيئاً ليخلى مكانه لذلك الشاعر الذى غزا المجتمع بنغم جديد و إنشاد ملائم وتوقيع مستحسن وقصص مستحب للنفوس التى كبتت فيها نوازع البطولة ، ورأت مجدها يتخطفه المغيرون من أوزاع الأمم ، فكأنهم بالإقبال على هذا « الشاعر » كانوا يشبعون النقص المركب فى نفوسهم ، ويرضون شهوة مطموسة فى ميولهم ، ولقد تمت المكانة لهذا « الشاعر » فى السيطرة على عواطف المجتمع المصرى بين القرن الخامس والقرن السادس للهجرة على ما أوضحناه في الفصل السابق ، وظلت هذه المكانة تطرد نفوذاً وقوة على مر العهود البائسة التى اكتنفت البلاد من جراء الحروب الصليبيــة ومن حكم المماليك وسيطرة الأتراك وغزو الفرنسيين ، فكان المجتمع يعيش من أثر هــذا كله مخدور الأعصاب مجذور الأسباب ، يجد فيما يقص ذلك الشاعر سلوته وراحته ، والتفريج عما يعانيه في داخلية نفسه ، وما يخيم من ظلام الحوادث على عقله .

فرق الشعراء والمحدثين فى المجتمع :

وقد عقد كلوت بك فى كتابه « لمحة عامة إلى مصر » فصلا تحدث فيه عن قصة أبى زيد الهلالى وشغف المصريين بسماعها، ثم وصف ما كان للشعراء والمحدثين بهذه القصة من المكانة فى المجتمع القاهرى أيام محمد على باشا فقال :

« ينقسم المحدثون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة منها برواية قصة واحدة ، فلا يفتات محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين ، وأكثر تلك الفرق عدداً الفرقة المتفق على تسمية أعضائها بالشعراء ؛ فقد احتكر هؤلاء إلقاء قصة أبى زيد فى المجتمعات العامة ، ويوجد فى القاهرة وحدها الآن خمسون شاعراً من تلك الفرقة ، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر ويسمى أعضاؤها بالمحدثين ، ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنترة العبسى ويسمى رجالها بالعنترية » .

وبعد أن تحدث كلوت بك عن مجالس هؤلاء الشعراء والمحدثين وإقبال المصريين عليها ، ووصف مدى ما كان يفعله ذلك القصص فى نفوسهم ومبلغ استثارته لعواطفهم ، عرض لوصف

الآلة الموسيقية التى كان أولئك الشعراء يوقعون عليها أنغامهم وأشعارهم أثناء رواية القصة فقال « إنها آلة موسيقية ذات وتر واحد ، وهى جديرة بالذكر إذ تخرج منها أنغام شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية » وهذه الآلة هى المعروفة بالربابة ، ولايزال استعمالها دائماً فى مصر إلى هذا العهد ، وفى الريف لا يفضلون عليها آلة موسيقية أخرى ، ولا يطربون لشىء مثل ما يطربون لصوتها الحماسى ، فانها تثير فيهم النخوة والحمية فتجدهم لدى سماعهم لها يتصايحون بنداءات الحماسة والفتوة ·

كيف خفت صوت الشاعر :

كان ذلك شأن شاعر الربابة فى المجتمع المصرى ، لا صوت أندى من صوته ولا أثر أبلغ من أثره ، وتقدمت مصر فى شوط المدنية ، ودرجت تأخذ بأسباب الحياة الحديثة أيام محمد على ثم أيام اسماعيل ، ولكن مكانة ذلك « الشاعر » ظلت على الرغم من هذا قائمة معتبرة ، و بقى سامره عامراً حافلاً بمختلف الطوائف وكان يشارك فى إحياء الحفلات العامة والأفراح الكبيرة والليالى الساهرة . غير أن المجتمع القاهرى أخذ فى أواخر عهد

اسماعيل يتطور تطوراً سريعاً ، وبدأ يستقبل فى اللهو والسمر ألوانا جديدة وفنوناً مستحدثة ؛ وكان للمهرجانات العظيمة التى أقامها إسماعيل احتفالا بافتتاح القناة وابتهاجاً بزفاف أنجاله أكبر الأثر فى ذلك ، إذا امتدت سهرات الغناء والرقص فى مقاهى الأزبكية وغير مقاهى الأزبكية ، وتألفت فرق صغيرة لتمثيل الأدوار المضحكة والتقاليع الهزلية مثل فرقة كامل الأصيلى وفرقة مصطفى أمين ؛ وظهر كثير من المهرجين الفكهين أمثال السيد قشطة وأحمد الفار ، وكان أن قامت إلى جانب هذا كله دار الأوبرا التى أنشأها اسماعيل للتمثيل ثم « التياترو » أو ما يسمونه «بالسرك» الذى يتنقل فى أحياء القاهرة وفى مدن القطر الكبيرة، ثم نبوغ طائفة من أشهر المغنين أصحاب الأصوات الرخيمة أمثال عبده الحمولى وزوجته المز والشيخ يوسف المنيلاوى ومحمد عثمان وعبد الحى حلمى ، فكل هذه الألوان الجديدة التى ظهرت وشغف بها الناس استطاعت أن تتغلب على ذلك « الشاعر » وأن تسلخ عنه عشاقه وقصاده ، وهو يقف تجاه هذا كله يناضل عن مكانته ويدافع عن بضاعته ، ولكن مظاهر المدنية الحديثة استمرت تتخطف عشاقه وقصاده ، وتمطر المجتمع كل يوم بفنون

من اللهو والسمر لا قبل لذلك الشاعر بها ، فأخذ ينكمش ويتوارى ، وأخذ نغم ربابته يتضاءل يوماً بعد يوم حتى صار إلى الحال التي نراه عليها اليوم .

. أثر القصة فى المجتمع :

هذه هى قصة شاعر الربابة وما كان له من مكانة فى المجتمع ، وسيطرة على النفوس دامت ثمانية قرون ، ظل طوالها يحدث الناس بوقائع القصة الهلالية ، ويلعب بمشاعرهم وأحاسيسهم ، ويقبس من رغبات السامعين ويفيض عليهم ، ونحن نعرف أن المحدث يحرص على أن يؤثر بحديثه فى المستمعين له ؛ وكثيرا ما يتمشى مع ميولهم فى قبول الحديث وما يقع من المعانى موقع الرضا والبشاشة ، لهذا كان من الطبيعى أن يكون لهذا القصص أثر ظاهر فى المجتمع من الناحية النفسية والخلقية والاجتماعية ، كما كان من الطبيعى أيضاً أن يكون للمجتمع أثر فى تكوين ذلك القصص ونموه ، وهذا ما يراه الباحث واضحاً بمجرد النظر فى ذلك القصص . يقول أحد الكتاب فى مقال له « إن قصص بنى هلال كان لها أسوأ الأثر فى البلاد الإسلامية ، فما من واحد

من أهل تلك البلاد، بعد انتشار تلك القصص فيها — إلا ويريد أن يكون بطلا كأبطالها، ولو كان أولئك قتلة وقطاع طرق وناهبي أموال ، فإذا أصبح واحد فى تلك البلاد بطلا فلا يكون همه إلا القتل ونهب أموال الناس كأولئك الأبطال الذين يتغنى شعراء الرباب بذكرهم ، ولو بحثت الآن فى مصرنا لوجدت لصوصها وقطاع الطرق فيها من أولئك الفتيان الذين يريدون أن يتحدث الناس عن بطولتهم كما يتحدثون عن بطولة أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم » .

فهل هذا صحيح ؟ وهل هذا هو الأثر الذى كان لذلك القصص فى نفوس الناس ؟

إنه فى الواقع حكم مشوش ، وإسراف لا مبرر له ، فقصص بنى هلال لم تعلم الناس السلب والنهب ، ولم يكن أثرها هو ذلك الأثر السيء الذى شنع به الكاتب . حقاً إنها أثرت فى نفوس العامة بشيء من الشر ، ولكنها كذلك أثرت بكثير من الخير الذى كسبت به الأخلاق والحياة الاجتماعية وخاصة فى قرى الريف وبواديه .

حكى لى صديق من رجال القضاء أنه أدرك بالاستقراء والتثبت

أن تسعين فى المائة من جرائم القتل التى تقع فى الصعيد بدافع الغيرة وحماية العرض ، أو ببواعث النخوة والعصبية إنما ترجع إلى ما يتأثر به الناس من سماع قصص أبى زيد الهلالى وحكايات الأبطال التى يذيعها فيهم الشعراء .

وهذا صحيح ، فان قصة الهلالية ظلت درساً يلقى على الناس فى الاعتداد بالنفس والثبات على الشجاعة، وحماية الجار والمستجير، والدفاع عن العرض والحريم ، والتعصب للأهل والعشيرة ، والمبادرة إلى مواجهة الخصم، والأنفة من الخضوع والخنوع ، وغير ذلك من المعانى والصفات التى ترددها القصة كثيراً ، وتصورها للناس فى صور مختلفة مقبولة تهفو إليها النفوس والقلوب ، وقد يكون فى هذا ما يجر إلى الشر، ويبلغ بالنفوس الفتية الى الطيش والرعونة والشطط فى التصدى والانتقام مما قد لا تقره القوانين الموضوعة ، وإن كانت تقضى به التقاليد الموروثة .

على أن هنالك من أثر هذه القصص فى الخير مالا يصح أن يجحد أو ينكر ، فمن ذلك الحض على البذل والعطاء، وسماحة النفس ، وإقراء الضيف ، وإغاثة الملهوف ، ومواجهة الشدائد، والصبر على الجهد ، إلى آخر ما نجده شائعاً فى القصة ، وتجد العامة يحفظون

فيه الحكم والأمثال ، ويرددون له الشواهد مما جاء على لسان ابطال القصة ، فأنت إذا أخذت فى الحديث مع أحد إبناء الريف فإنه لا يلبث أن يستشهد لك فى كل ما يقرره بما يحكى عن أبى زيد وما يروى عن دياب ، وما وقع للزناتى .

وهناك ناحية أهم فى الأثر والتأثير ، ذلك أن المجتمع الإسلامى بعد أن ربكته الحروب الصليبية المعروفة خضع لمقدور الحياة ، وخنع لما تجرى به الأيام ، واستكان لما تجلبه عليه الحوادث ، وضعفت روح الأقدام والشجاعة التى كان يزكيها فى النفوس إعداد الجيوش واقتحام الحروب ، فكان ترديدذلك القصص فى المجتمع مما حفظ هذه الروح سليمة قوية فى نفوس القوم ، بل زادتها تزكيةوإثارة ، وقد حكى لى رجل من المعمرين فى قريتنا كان جنديا فى حملات إسماعيل باشا فى السودان والحبشة أن قصة أبى زيد الهلالى كانت حديث سمرهم ، وأن قائدهم كان يختار لهم من يسرد عليهم مواقع هذه القصة ، ويكافىء الذين يحسنون سردها من الجنود .

فليس من شك فى أن القصة الهلالية قد أثرت فى المجتمع الذى تداولها تأثيراً كبيراً فى النواحى التهذيبية والخلقية والاجتماعية

وليس من شك فى أنها كانت درساً أخذه الناس بالوعى والفهم، وآثروه فى حياتهم وسلوكهم، على عكس ما أخذوه عن قصة ألف ليلة وليلة وما فيها من تهاويل الغرام والمجون ، ولن يدرك هذا كله إلا من خالط الجموع فى مجالس الشاعر وهم يصيخون له، ورأى ذلك الشاعر وهو يتلاعب بعواطفهم ويستبد بأعصابهم .

الفصل الخامس

أدب الهلاليين وشعرهم

نقصد فى هـذا الفصل إلى الكلام على أدب الهلاليين وشعرهم ، و إلى تناول القصة الهلالية من الناحية الأدبية ، ومالها من القيمة فى ذلك ، وليس من شك فى أن شعر الهلاليين نمط من الشعر العربى له لونه الخاص ، ومميزاته الفريدة ؛ وهو بهذا أحرى بأن يدرس على حدة ، وأن ينظر إليه الباحث على أنه ناحية من نواحى التطور التى انتهى إليها الشعر العربى فيما بعد ، مثل الموشحات والأزجال والقوماوالدو بيت ؛ ولـكن أحداً من الباحثين لم يهتم بذلك اللون الشعرى الطريف كما اهتموا بتلك الألوان الأخرى ، ولقد تورع العلماء عن روايته وترفعوا عن الاهتمام به نظراً لما فيه من اللحن والخروج على قواعد الإعراب، كأنه فى تقديرهم ينزل عن مرتبة الزجل الذى ينظم بالعامية الخالصة ، وعلى الرغم من ذلك فقد أولوه بعض العناية ، وتظرفوا بروايته والغناء به ، وكما كان ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى اهتم بتاريخ بنى هلال وسليم وقصصهم ، فقد كان أيضاً

هو الباحث الوحيد الذى أكبر أدبهم وتحدث عن شعرهم ، ونعى على العلماء تزمتهم فى إهماله والإنصراف عنه .

لم يدون ذلك الشعر ، ولم يصلنا بالرواية الصحيحة ، إلا ما تشتمل عليه القصة من الأشعار ، والقصة قد دخلها كثير من الانتحال والتلفيق على ما رأيت من قبل، فلا يستطيع الباحث مهما كد ذهنه وأمعن فى التنقيب أن يقع على الأصول الصحيحة والأشعار الحقيقية للقوم ، ولكنه على الرغم من ذلك لا يعجز وهو بسبيل الدراسة لهذا الشعر عن أن يقف على خصائصه الفنية فيما يعرف من لغته وأسلوبه وغرضه ، إلى آخر المظاهر التى تتجلى فى النصوص القليلة التى رواها ابن خلدون من هذا الشعر ، وفى النماذج التى حفظتها القصة أو حيكت على مثاله على الأقل ، وهذا ما نريد أن نعرض له فى هذا الفصل .

رأى ابن خلدون :

عنى ابن خلدون بالحديث عن شعر الهلاليين وقصصهم فى غير موضع من تاريخه، فقال وهو يتكلم عن تطور الشعر العربى وتنوع فنونه وأساليبه فى العصور المتأخرة :

« فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر ، فيقرضون الشعر لهـذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ، ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن فى الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ، ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راوية العرب فى أشعارهم ، وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من الشعر بالبدوى ، وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ، ثم يغنون به ، ويسمون الغناء به باسم الحورانى نسبة إلى حوران من أطراف العراق والشام ، وهى من منازل العرب البادية ومساكنهم إلى هذا العهد ، ولهم فن آخر كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معصباً على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت . إلى آخر القصيدة تشبيها بالمربع وبالمخمس الذى أحدثه المتأخرون من المولدين ، ولهؤلاء العرب فى هذا الشعر بلاغة فائقة

وفيهم الفحول والمتأخرون ، وكثير من المنتحلين لهذا العهد وخصوصا علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم إذا سمعها، ويمج نظمهم إذا أنشد ، ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها ، وهذا إنما يأتى من فقدان الملكة فى لغاتهم ، فلو حصل ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره ، وإلا فالإعراب لامدخل له فى البلاغة ، إنما البلاغة مطابقة الكلام المقصود لمقتضى الحال من الوجود فيه ، سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب دالا على المفعول أو بالعكس . وإنما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه ، فالدلالة بحسب ما يصطلح أهل الملكة ، فاذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك ، وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الأعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ، ويتميز عندهم الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب . . »

ثم عاد ابن خلدون يتحدث عن شعر الهلاليين وأدبهم مرة أخرى فى الجزء السادس من تاريخه وهو بسبيل الكلام عن أنسابهم وتاريخهم فقال :

« ويروون كثيراً من أشعارهم محكمة المبانى متقنة الأطراف، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شىء ، وإنما تخلو من الاعراب فقط ، ولا مدخل له فى البلاغة كما قررنا ذلك فى الكتاب الأول من كتابنا هذا ، إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ، ويستنكفون منها ، لما فيها من خلل الإعراب ، ويحسبون أن الإعراب هو أصل البلاغة ، وليس كذلك »

« وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة ، وفقدت فيه صحة الرواية ، فلذلك لايوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بآبائهم ووقائعهم مع زناته وحروبهم ، وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، ولكننا لا نثق بروايتها ، وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع فيها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه .. »

فالشعر الهلالى كما يرى ابن خلدون ، نمط من الشعر العربى فى أسلوبه وأغراضه ، ونهجه ومذاهبه ، لم يخرج به القوم فى شىء

إلا أنهم كانوا ينظمونه بلغتهم الملحونه ، ولا يتمسكون فى أدائه بقواعد الإعراب وحركاته فى أواخر الكلم ، وهذا هو الذى جعل علماء العربية يهملون روايته و يترفعون عن النظر فيه على الرغم مما يتجلى فيه من اتفاق الأطراف و إحكام المبانى ، وعلى الرغم من أن الإعراب لامدخل له فى مقياس البلاغة وتحققها كما يقول ابن خلدون .

الإعراب وصلته بالبلاغة :

وهذا الرأى الذى يبديه ابن خلدون فى الصلة بين الإعراب والبلاغة ، رأى فيه بعض الحق ، وفيه أيضاً بعض الباطل ، فلا نستطيع أن نقبله من ابن خلدون على علاته ، و إنه لجدير بالنظر والمناقشة .

حقاً إن الإعراب لا مدخل له فى البلاغة إذا اعتبرنا البلاغة معنى فنياً يشيع فى كل لغة ، و يتحقق فى كل لهجة ، فليس من شك فى أن فى اللغة العامية وفى معارضها الفنية من الزجل والأغانى الدارجة والأناشيد الشعبية ، وفى اللغات الأجنبية بلاغة،

و بلاغة فائقة ، وهى لا تتقيد بقواعد الإعراب ، بل قد يكون استعمال الإعراب فيها مما يفسدها ، ومع هذا فلا يستطيع أحد أن ينكر ما فيها من مظاهر الروعة الفنية ، و إلى هنا فنحن على اتفاق مع ابن خلدون فى رأيه .

ولكنا إذ ننظر إلى البلاغة فى دائرة اللغة العربية خاصة ، فإننا لا نستطيع أن نوافقه على أن « الإعراب لا مدخل له فى البلاغة » ، لأن مظاهر البلاغة فى أية لغة إنما تستمد عناصرها من خصائص هذه اللغة ومميزاتها ، والإعراب من أهم الخصائص التى تتميز بها العربية ، فالعلماء لم يسرفوا ولم يتنكبوا الصواب إذ جعلوه شرطاً أساسياً أولياً فى بلاغة الكلام العربى ، وأغلب الظن أنهم حينما أنكروا الشعر الهلالى لعدم تقيده بقواعد الإعراب إنما أنكروا حسبانه أن يكون من كلام العرب الصريح ، وأسلوبهم الصحيح ، و إن كانوا أسرفوا فى هذا الإنكار ، وتزمتوا غاية التزمت ، حتى حملهم هذا على إهمال ذلك الشعر كل الإهمال، وأغفلوا ما فيه من مظاهر البلاغة لأنه فقد صفة واحدة هى التقيد بقواعد الإعراب .

خصائص الشعر الهلالى :

و إذن فلننظر إلى الشعر الهلالى على هذا الاعتبار طليقاً من قيود الإعراب والتزاماته، و إنه لجدير بالنظر، وإن الباحث ليلمس فيه كثيراً من الخصائص الفنية والمظاهر الرائعة الطريفة التى تحببه إلى النفوس ، وتتجاوب به مع عواطف القارئ فى كثير من الأحيان .

ولعل أول ما يلفت النظر من خصائص هذا الشعر هو ما فيه من صدق العاطفة وقوة الإحساس وسذاجة التصوير، وهذا شيء طبيعى ، لأنه شعر البداوة والفطرة السمحة والانفعال النفسانى الذى يفيض به التعبير فى وضوح وصراحة، و إنها لصفة تتجلى فى سائر الاتجاهات التى رامها هذا الشعر من الغزل والنسيب والشكوى والحنين والسلوى والتأسى والفخر والمنازلة والغضب والإثارة ، إلى آخر تلك الفنون والأغراض ، فلسنا نعدو الحق إذا سميناه شعر العاطفة ، لأن القوم لم يتجاوزوا بأغراضه حدود الانفعال النفسى ومايشغل عواطفهم ومشاعرهم من شئون الحياة .

وهناك صفة أخرى لا تقل عن تلك الصفة وضوحا فى هـذا

الشعر، وهى الانسجام الموسيقى والمرونة التى تطاوع الصوت بشتى ألوان التنغيم والتطريب ، وهذه الميزة هى التى طوعت لشعراء الربابة أن يتغنوا بجميع ألوان هذا الشعر وأن يوقعوه على الربابة نغما منسجماً ولحناً شجياً يهز القلوب ، ويبدو لنا أن هذه الميزة قد تحققت لهذا الشعر من خلوصه من قيود الإعراب واعتماد قائليه فى نظمه على التلحين الموسيقى والترجيع الغنائى ، لأن حركات الإعراب فى أواخر الكلم كثيراً ما تقيد حركات اللحن وتضيق دائرة المرونة لامتداد الصوت وانتقالاته ، وتقف ثقيلة فى الملائمة بين قرار النغم وجوابه وما يسميه أهل الفن بحركة الربط فى النغم الموسيقى .

وثمة صفة ثالثة تتجلى أمام الباحث فى هذا الشعر وهى قوة الروح الدينية ، فكثيراً ما يرد فيه ذكر الموت والحشر والحساب والعقاب وخوف الآخرة والاستسلام للمقادير والتفويض لله ، ومن تقاليدهم الظاهرة فى هذا ابتداء القصائد بالصلاة على النبى وقد يختمونها بذلك ؛ والظاهر أن القصاص والوضاعين قد بالغوا فى تصوير هذه الناحية وإبرازها ، فكانوا يتعمدون هذا التقليد فى كل ماينتحلونه من الشعر فى القصة نظراً لما لهذا الاتجاه الدينى

من قوة التأثير على نفوس العامة والوصول إلى قلوب السامعين .

وإلى جانب هذه الخصائص فى الشعر الهلالى ، يلاحظ الباحث بعض الخصائص الأخرى فى أسلوبه وطريقة التأدية فيه ، فمن ذلك مايحرص عليه الشاعر فى أغلب الأحيان من التصريح باسمه فى أول القصيد، والهجوم على الغرض فى غير تقدمة ولا تطويل ، وإيثار بعض التعابير يكررونها كثيراً فى أشعارهم، وقد يكررونها فى القصيدة الواحدة عدة مرات .

القصة من الناحية الأدبية :

بقيت كلمة أخيرة عن القصة من الناحية الأدبية ، ونعنى القصة بوضعها الذائع الشائع وما فيها من شعر مطبوع ومصنوع وحقائق وخيالات ووقائع ومبالغات ، وغاية ما يصفها الباحث فى هذا أنها قصة شعبية استوفت عناصرها على هذا التقدير، وحازت كل ضروب البراعة فى ملاءمة عقلية الجماهير واستفزاز عواطف الجموع الشعبية ، ومن أجل هذا ظلت القصة حية فى بيئات الشعب تلك الآماد الطويلة ، وستظل كذلك إلى آماد طويلة .

وأسلوب القصة مختلف ، بمعنى أنه متغاير فى طبعات القصة

الـكثيرة،ولـكنه يتفق فى أصول ثابتة و يجرى على أوضاع متفقة تجعلنا نحكم عليه حكما متفقاً ، فهو أسلوب بارع فى الحكاية ، سهل العبارة ، يكثر فيه السجع والرنين الموسيقى ، و يأخذ بالأوصاف الحسية والتشبيهات الملموسة،وكثيراً ما تتوارد فيه بعض التعبيرات والأوصاف ، فلا تتغير ولا تتبدل في كل واقعة ، وتقع فيه كلمة « قال الراوى » بين كل واقعة وواقعة كأنها استراحة لذهن السامع ، وكأنها أيضاً تنبيه له على الإنصات والمتابعة ، واستعمال كلمة « قال الراوى » على هذا الوضع وهذا الترتيب من خصائص القصة الهلالية لم يستعمله القصاص والرواة من قبل ، وكأنهم أرادوا بهذا أن يقابلوا الوضع المألوف عند المؤلفين من العرب فى إيثار العنعنة فى الرواية و إسناد القول إلى قائله .

***

وأما بعد ، فالى هنا أقف بالقارىء ، ولعلى أن أكون قد وفيت البحث عن هذه الناحية من تراثنا الشعبى فى حدود ذلك الوضع الضيق ، والله ولى التوفيق والسداد، ومنه العون والرشاد.

طالعوا مجلة

الكتاب

التي تقدم الى قراء العربية
في أول كل شهر أبحاثاً قوية
ودراسات رصينة وأنباء طريفة
فى مختلف ألوان الآداب والعلوم والفنون

تصدر عن
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر
رئيس تحريرها الأستاذ عادل الغضبان
يشترك فى تحريرها كبار كتاب الشرق الع

ثمن النسخة

بمصر والسودان ١٠ قروش بفلسطين وشرق الأر
بلبنان وسوريا ١٢٠ غ.س بالعراق